

بها بخلاف الرسالة والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة اه  
ونحن نوصي القارئ أن لا يغفل خصوصاً عن خطب علي بن أبي طالب كرم  
الله وجهه فان نهج البلاغة أكبر كنز للخطيب والكتاب يستقيان منه مادة عقل  
وعلم وأدب وبلاغة وسياسة وإدارة ونحن نضمن لمن كان له طبع شفاف اذا  
استظهر نهج البلاغة وتقطن لما فيه من النكات العامية معتمداً مثلاً على شرح ابن  
أبي الحديد المطول وتعمرن في أساليب الخطابة على مناحي البلغاء والعرب المستعربة  
والعاربة والعرباء يوشك أن يكون من أئمة هذا الشأن في هذا العصر أيضاً فان  
كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه لا تبلى ديباجته وجدته ، وكما كرر حلاً ، ومهما  
تأملته علا ، ففي كلامه عبقة من النور الألهي ، ونفحة من الروح النبوي ،  
ولو لم يكن للسان العرب غير خطب الخليفة الرابع ، لكان كافياً في شرفه وبيانه  
وأن يجرى على لغات الشرق والغرب ذبول الفخر والمباهاة

## الخطابة عند الأفرنج

من تأمل في تاريخ الطرق الخطابية ير أن القدماء (١) أفرطوا في فن الخطابة  
وانه وان صعب العثور على مبدأ معين في كتب الاقدمين وطريقتهم في خطاب  
الجمهور فان جميع المصنفات التعليمية تحوي إبهاماً خلطوا فيه بين علم الكتابة وعلم  
الكلام ، فان علم الخطابة لم يكن في نظر القدماء هو علم التكلم واللقاء ، بل علم  
تحسين الكلام وتنسيق الانشاء . ومن تلاك كتاب الجمهورية لأفلاطون وفيه مباحث  
جلية في الخطابة عند اليونان يتجلى له أن جميع خطباء آئينة كانوا ينمقون  
العبارات قبل أن يتلوها وتراءى له من خلال سطورهم آثار العمل والاستعداد  
قبل إلقاء خطبهم على مسامع الجمهور ، واذ كان يحظر على المحامي في آئينة أن يدافع  
عن غيره اضطر بلغاء اليونان أن يكتبوا خطبهم في الدفاع ويعطوها لغيرهم  
يستظهرها ليلقيها ولذلك قل المرتجلون من الخطباء في يونان وان وجدوا فهم  
على ندرة

قال بعض المعاصرين لو لم يكن خطباء الأقدمين يهيئون خطبهم قبل إلقائها

ما كان بقي لنا من كلامهم إلا النذر اليسير ، وذلك لأن فن الاختزال لم يكن يعهد اذ ذاك بيد انه مما لاشك فيه أن بعض خطباء اللاتين الذين وصلتنا خطبهم قد ألقوها بدون أن يستعدوا لها بكتابتها ، وكان من العادة أن يعود الخطيب عندهم فيدون بالكتابة ما قاله من خطاب كما فعل شيشرون في بعض خطبه ، والحق الذي لامرية فيه ان الخطط طالما اعتبر في اليونان ورومية بانه الأسلوب الوحيد في الجملة لأعداد الكلام ليلقى على المسمع العام . ويجب أن يلاحظ أن الخطيب الآثيني مهما بلغ من ثقته بنفسه لم يكن يجسر أن يقف موقف الخطابة قبل أن ينظر نظراً بليغاً فيما سيلقى عليهم لانه عارف بدرجة مدارك الحضور ومعرفتهم نقد ما يقول وما بقي من خطب خطباء يونان هو مما هذبه أناملهم ، ونظرت فيه عقولهم ، ملاحظين في ذلك أنهم سيخلفون ذلك للاعقاب فلا يليق أن تكون إلا من أحسن ما يجب

وطالما هذب شيشرون خطبه وتمرن على إلقائها حتى انه في سن الستين قبل أن يقتل كان يمرن نفسه على كيفية الألقاء . وكان القدماء يعلقون شأنًا عظيمًا على الالتقاء في المجالس العامة حتى لقد افترط شيشرون في قوله بأن الخطاب العام يتطلب تعبيرات لطيفة منتقاة . فقد كتب الى أحد أصحابه ان الرسالة لا يمكن ان تشبه دفاع المحامي أو خطابا سياسياً فانه تستعمل فيه جهل شائعة بالاستعمال . بيد ان كثيرين من خطباء اللاتين وقدماء خطباء اليونان كانوا لا يحفلون بأعداد خطبهم ويظهر ان هورتانسيوس وهو استاذ شيشرون لم يكن موافقاً لتلميذه على قضايا هورتانسيوس هذا كان على جانب من الذكاء وحسن الذكرة بحيث كان يستطيع أن يتلو خطبه ويؤلفها في الحال جارياً في ذلك على طريقة شارلماد وميتروودور وهما خطيبان آثنيان كانا يعدان في ذهنهما ما يريدان القاء

وكانت طريقة القائد الخطيب الروماني « كالبيا » غريبة في بابها فكان ينقطع في داره مع خدامه غداة يريد أن يلقي دفاعاً ويلقى عليهم ممرناً نفسه فيما يريد أن يخوض عبا به فكان يخرج من الغد في حالة تهيج خارقة للعادة وعيناه تقدرحان شرراً وهو على غاية التحمس يعبث به هواه ويذهب الى ميدان الفوروم . واعتاد بعض شبان الخطباء من الرومان أن يأتوا الى المحكمة بدفاعهم مكتوباً على الورق

وكان كفتليان من أساتذة الخطابة عند قدماء اللاتين يرى أن يتقيد الخطباء في أعداد ماسيتلون ولا سيما للمتشرح للخطابة المبتدئ فيها ويرى ان الارتجال لا يتأتى للمرء الا في أواخر عمره بعد ان يكون ذاق الامرين في تعلم صناعة الخطابة وعرف حلوها ومرها . ولم يكن في عهده وهو القرن الأول للمسيح سوى خطيبين مرتجلين هما بورسيوس لاترو وكاسيوس وما عداها فكانوا ككل الناس يهدون خطبهم قبل القائها

وكان بوسويه خطيب الفرنسي المتوفى سنة ١٧٠٤ يكتب خطبه على الورق فيرسمها ثم يتوقع ما يوحيه اليه المنبر ليجعل فيها حياة وحركة وظلت الاصول المتبعة في فرنسا مدة القرن الثامن عشر بأن يقيد المحامون والخطباء أقوالهم . هكذا كان يسير أكبر المحامين كوشين . ولما حدثت الثورة الفرنسية الأولى اضطراب السياسة الى الارتجال فأخذوا يخطبون قومهم بدون أن يستعدوا من قبل ثم ارتقت الخطابة عندهم في السكليات والمحاكم والمجالس حتى قال موريس آجام ما من شيء يضاد الارتقاء في الخطابة أكثر من أعدادها بالكتابة قبل الالقاء فاذا كان وصل كبار المتكلمين الى أرقى درجات الفصاحة فبدونها وصلوا أو بعبارة ثانية على الرغم منها

ويرى ان يتمرن المرء على الارتجال بان يرتجل كل صباح في موضوع من الموضوعات لنفسه ولوربع ساعة فيتمرن جرسه وصوته وذلك بأن يذكر دائماً قاعدة ينبغي ان المرء يتعلم الارتجال بتكرار العمل فيه . وان الواجب تعويد الناشئة النطق منذ نعومة اظفارهم وان صناعة الخطابة ولا سيما الارتجال لا يتعلمها من جاز الأربعين من العمر ولا من جاوز الثلاثين فالأولى ان يبدأ بها منذ الصغر وانه من اللازم على من يريد تعلم الخطابة ان يستنصح صاحباً له يدلّه على عيوبه في النطق والاشارة وان يأخذ النفس كل يوم بسماع . صاقع الخطباء لامتوسطهم حتى يتعلم منهم . فان المتوسط يفسد عليه ملكة الخطابة ولذلك كانت العواصم والحواضر أكبر ميدان للتخرج في الخطابة لان فيها من أهل الطبقة العالية أصنافاً من الخطباء . وذلك لأن السماع يجعل المتكلم متكلماً وفكر البشر يغتذى بالتقليد . وعليك يا هذا ان لا تمهد الى استعمال الغريب ولا تتعمر بل توح السهولة

ومألوف الناس من الكلمات تؤثر فيهم وتفعل في عقولهم . لا تتمد لغير الوضوح  
ودع الكلمة الزائدة للشاعر والكلمة العريضة للفيلسوف واذا اعتقدت انه يكفي  
الانسان ان يتلو كتابا يبحث في أصول الخطاب حتى يصبح خطيباً فألق سريعاً  
هذا الكتاب طعاماً للنار

كان بوسويه نصف مرتجل يعد مفكرات لخطبه ثم يزيد عليها وينقص منها  
عند اللقاء وكان فليسيه وفنيلون في مواعظهما يعدان ما يلقيان من قبل ويستظهرانه  
وكان كوشين يعد من قبل مدافعاته حتى استطاع في آخر عمره ان يرتجل . وكان  
المحامي جرييه يعد ما يخطب به مطولاً ولا يزال يحجو منه حتى لا يبقى على أكثر  
من عشرين سطراً وكان تارجه يكتب دفاعه برمته ويقرأوه وكان ميرابو خطيب  
الثورة ممن يعتمد على الكتابة ليخطب فاضطرته السياسة ان يرتجل وما كان يحسن  
الكتابة وهو مستريح البال اما اذا هاج فانه يعاود القلم ويكتب في الجملة وكان  
يبدأ بخطابه متأنياً في باديء الامر ويتحمس بالتدريج وكان فيرينو من خطباء  
الثورة لا يخطب الا اذا تألم لظلم يقع أو حاذر خطر أيدهم وعندها تفتبه حواسه  
ويفكر سريعاً ويعمل في ساعة مالا يعمل في ساعات . بدأ محامياً وكان يكتب  
دفاعه ويتلوه ثم كفف عن الكتابة وكان يعد كل الاعداد خطبه الكبرى ولا سيما  
في تلاوتها لاصدقائه من قبل أن يلقيها على الجمهور وهذه الطريقة هي التي جرى  
عليها بعد حين تيرس رئيس الجمهورية الاولى في الجمهورية الثالثة والعالم المشهور  
وكان كواديه من خطباء الثورة يكتب خطبه عند ما كان محامياً ولما أصبح  
خطيباً سياسياً صار يرتجل وكان ايسنارد من خطباء الثورة مرتجلاً ولكنه كان  
يكتب . وكان دانتون خطيب الثورة الخطيب التام الأدوات في الثورة وأقدرهم  
على ادراك حاجة عنصره . وكان أرول دي سيشل من خطباء الثورة يكتب ويحفظ  
خطبه ويعمل بقول فولتير : ان الالفاظ يريد الافكار . وكان روبسيير من خطباء  
الثورة يعد خطابه ويعجو ويثبت كثيراً كتلميذ مبتدئ ومعظم خطبه اخترعت  
وألفت من قبل ان تنشر لم يتوسع فيها عند ما يقولها . وكانت طريقة بانجامان  
كونستان الكتابة لما يخطب به مثل القائد فواولافيت ودوبونورويه كولار .  
وكان النائب مانويل مرتجلاً لا يكتب خطبه الا في أمور المالية . ولم يتخل

دى مارتينيان عن كتابة ما يريد القاءه مع انه يرتجل أحسن ارتجال ومن كان يسمعه يتكلم بصوت رخيم يستريح ويسكت وينوع لهجته يستدل على انه يرتجل . وكان لينه مثل كواديه ورافيسه وفيرير من أمراء الكلام لم يجمل المتقيد بالكتابة الا مقاماً ثانوياً . وفيرير كان من أعظم من وجد من رجال المحاماة كان يفكر طويلاً فيما يريد أن يلقيه ويتأمله فلم يكن ممن يعتمد على الكتابة صرفاً . وكان هانكن من رجال المحاماة لا يأنف طول حياته من أعداد خطبه . وكان يريه المحامى لا يكتب خطبه ولم يعرفوا طريقته في خطبه هل كان يحدث بها أصحابه قبل أن يلقيا كما كان يفعل فرنو وتيرس أو يفكر فيها مثل فيرير أو يكتبها في فكره مثل هورناتسيورس والذي عرف عنه وكان يكتم طريقة نبوغه ان كلامه كان يسبق فكره وانشاؤه كان منحنطاً

وكان الاخوان دويين المحاميان يرتجلان ولاكنهما يدرسان موضوعهما حق الدرس قبل النزول الى ميدان الخطابة وكان أحدهما يأسف لان الوقت لا يساعده ان يفكر ملياً في خطابه ويقول لو أكثر ديموستين وشيشرون من الدفاع كثيراً لقلنا لم يكونا ديموستين ولا شيشرون . وكان تيرس يعد معظم خطبه من قبل بان يلقيا مرتين وأحياناً أربعاً على من يغشون مجلسه . ولم يكن فيكتور هوغر الشاعر الكبير خطيباً بل كان يضطر ان يكتب خطبه ويستظهرها ولطالما قال لا يستطيع المرء ان يكون خطيباً حقاً الا اذا كتب خطابه . زهد المحامى لاشوفى الكتابة وكان لا يقيد الارؤوس المسائل التي يتكلم فيها . وكان الوزير غامبتا لا يكتب ما يخطب وهو يشبه نابليون بعقله وذاكرته وكان يعد بعض خطبه الاولى من قبل فاما نشبت الحرب أخذ يرتجل حقيقة وكان في خطبه يبدأ بصوت منخفض جداً حتى يكاد يقول له الحضور اسكت وبعده هنيهة ترن القاعة من صوته وتدهش للفضل بيانه . وكان المحامى ليون دو فال يعد خطبه من قبل محتفلاً بها من وراء الغاية . وكان الدوج دى بروكلى يتأنق في أعداد خطبه ولكنه يستطيع ان يرتجل على أسروجه وكان بوفه مرتجلاً يؤثر بفصاحته في مجلس الشيوخ في مسائل كثيرة وان كان عضواً من حزب قليل في الوزراء . وكتب المحامى الايطالى هنريكوفرى

عن نفسه فقال : انه تعلم بان كان يتصدد الضواحي ويرفع صوته ويجرب نفسه بالخطابة حتى حطب مرة ثمانى ساعات متوالية ومرة احدى عشرة ساعة

\*\*\*

ونشر آجام عادات طائفة من الاساتذة والمحاضرين من العلماء فى الخطابة من الفرنسيس فكان منهم أناس يفكرون ملياً قبل أن يخطبوا أى أنهم يعدون الكلام أو معناه ومنهم من يكتب ما يريد قبل القائه وآخرون يرتجلون والاكثر فى هذه الفئة الكتابة قبل اللقاء لان خطبهم علمية على الاغلب ولا يرتجل عادة سوى السياسيين . وعلى من أحب أن يجودها ان يخطب لنفسه فى منزله أو قاعة خاصة مرة أو عشر مرات ربما يستجيم قريحته ولا تخونه الالفاظ وكل مرة فى الموضوع الواحد تزيد معانيه وتفزر الفاظه ويجب أن لا يهتم لانتقائها والتنطع فيها بل يكتفى بما جاءه عنو الخاطر وابن الساعة

وقد سأل المؤلف كثيرين من المشتهرين بالخطابة من قومه المبرزين فيهما عن طرقهم فى تعلمهم وارتجالهم ففهم من قال انه يفكر ملياً فى محاضراته بان يقولها بصوت منخفض أولاً وأحياناً يقولها فى عقله وانه لا يكتب كتاباً صغيراً قبل ان ينشئه فى عقله ويستظهر الجمل الاربع الاولى حتى لا يفجأه الحضور اذا مثل أمامهم . ومنهم من تحضره الافكار اذا أمسك القلم وقيدها ولكنه يحاذر استظهاره وهو يرى ان من يكتب محاضراته وخطابه يتعلم الارتجال مع الزمن ومنهم من تتمثل لعينيه المعانى والالفاظ عند ما يشرع فى الكلام كأنها مكتوبة امام عينيه . ومنهم من ينظم الافكار التى يحاضر بها على الورق ثم يرتجل ويستعد قبل الكلام ان يقول فى ذاته ما يجب القاءه على الجمهور مرة أو مرتين وقال انه بكتابته خطابه من قبل يسقط على الافكار التى لا تجيئه بصورة أخرى . ومنهم من قال ان خير طريقة لاستظهار ما يريد القاءه ان يكتب تلك القطعة ومنهم وهو استاذ عظيم يعد موضوعه أولاً ثم يعين فى عقله أفكاره ثم يخط لها خطة ثم يفكر فى البراهين التى عثر عليها ونظمها

ومنهم من ضعفت ذاكرته فيضطر للاستظهار أن يحرك شفتيه بما يحفظ حتى

يعلق شيء منه في ذهنه ومنهم من لا يحسن الكلام إلا إذا اضطرت نفسه وفرحت أو سخطت فإنه في تلك الحال يسرع في خطابة غير مبال أما إذا لم يكن على حاله من تلك الحالات فيتلعثم ويتردد ولا يعثر على اللفظ الذي يريده والخجل الذي يشعر به يزيد هذا الارتباك ومنهم من لا تأتيه الأفكار وتواتيه إلا إذا كان القلم بيده . وآخر يستظهر المقدمة والخاتمة ومعظم الجمل الأساسية ثم يتكلم ويترك الباقي للمصادفات . وغيره يرى أن الكلمات تولد فيه الأفكار وتفتح أمامه أفقاً جديداً وهو يدرس موضوعه بالأيجاز ويفكر فيه قليلاً أو طويلاً بدون أن يحكيه ولا يكتبه في عقله ويكتب أو يحاول أن يكتب والكتابة تسهل بزوغ الفكر أحياناً وأحياناً يتضرر من الكتابة وتقلج قريحته . وبالجملة فإن الكلام في الجمهور من شأن الحكومات الديمقراطية والخطباء يكثرون كما قال مونتين حيث تكون الأمور تتقاذفها العواطف الدائمة بين أخذ ورد

وقال ريبو إن معرفة الموضوع الذي يريد الخطيب الخوض فيه ورسم خطته في الفكر بسيطة للغاية من قبل وهما شرطان لازمان للأجادة في الخطابة وما عدا ذلك فهو من شأن الحضور المستمعين أكثر مما هو من شأن الخطيب وأسهل ضروب الأرتجال ما ساعد فيه الحضور بتراسل عيون الحب بينهم وبين خطيبهم والمبرة في معرفة روح الجمهور فإن له مناحي خاصة في الحسن والتعقل والفهم حتى ولو كان مؤلفاً من فلاسفة وعقلاء قال ما كس نوردو : اجمع عشرين أو ثلاثين من أمثال كيتي وكانت وهامبولز وشكسبير ونيوتن واعرش على حكمهم وآرائهم المسائل العملية الحاضرة فإن قراراتهم لا تختلف بتاتاً عن مقررات أي مجلس كان . ولماذا يكون ذلك ؟ لأن كلا من العشرين أو الثلاثين منتخباً فضلاً من تفرد به بما ياجه رجلاً فائداً قد ورث بعض صفات نوعه مما يكون به مثيلاً لجاره في المجلس بل شبيهاً لعامة الأشخاص الذين يمشون في الشارع فإن الجوهر الأنساني مستحكم من شخصية المرء وطربوش العامل يغطي قبعة الفيلسوف

وبقدر ما يستطيع الخطيب قيادة جمهور سامعيه يفعل في أرواحهم ويسوقهم إلى حيث يريد . ومن أجل ما قاله بريان من خطباء فرنسا إن الخطاب ليس قطعة أدبية بل هو عمل والخطاب لا يعمل ليقرأ بل ليسمع وصورته التي يظهر فيها

ثانوية فالتأثير يحدث والنتيجة الحاصلة هي كل شيء . ومراعاة القواعد مطروبة في الخطاب ولكن مهما كانت قيمته من الوجهة الأدبية فإنه اذا فصل عن محيطه الذي ألقى فيه وفارق الاسباب التي دعت اليه هل يكون له شأن صحيفة جميلة من الأدب استخرجت من قلم أستاذ في الكتابة

\*\*\*

واليك بعض نصائح عملية لطالب النبوغ في الخطابة منها أن يجتنب حق الاجتناب كل استمداد كتابي للخطاب : أن يحمل الخطيب نفسه كل صباح ولو عشر دقائق على أن يتكلم كثيراً في مكان عام أياً كان نوعه وان لا يكتب مراسلة قبل أن يتكلم بمضمونها سواء كان في عقله أو بصوت جهوري . فالتفكير والكلام قبل الكتابة في أي شيء كان مطلوبان . وان لا يعد خطابه في آخر ساعة بل يجب أن تكون بين ساعة القائه وساعة الاستعداد له ليلة على الاقل . واستعمال الفكر خلال الساعات الاخيرة التي تسبق المحاضرة وأن لا يكثر من استعمال المفكرات بل يقتصر على قيد التقاسيم الكبرى والتواريخ وأن يحفظ حق الحفظ الاسماء الخاصة التي ترد في الكلام وأن يعود المرء نفسه النطق بالصعب من الحروف ومعناة الخارج المختلفة من اللسان وأن يتفنن الخطيب في الجمل التي لا مناص له من استعمالها وهي من لوازم أكثر الناس فيجتهد أن ينوعها ويكثر من الأساليب التي هي بمعنى واحد وبألفاظ متباينة وأن يبدأ الخطيب خطابه أبداً ببطء بل بالخفض ثم يتدرج في رفع صوته . فكل خطيب يبدأ كلامه بصوت جهوري يوشك أن يختمه وقد أبح صوته وانخفض ويجب أن يعرض فكره بدون أن يشور غضبه فان الغضب ليس من الصحة في شيء وبه يبح الصوت . وينبغي له أيضاً أن يحدق بصره فيمن ينصبون اليه وأن لا يشغل نفسه بقراءة شواهد أو التقليل منها ما أمكن .

والمحركات في الخطيب مكانة ولكن الأكثر منها لا يهتمل والأحسن أن يذهب الخطيب مع الطبع واذا قوطع الخطيب فعلية أن ينتظر ريثما يعود السكون الى المجلس وعلى الخطيب أن يلاحظ تنمة سلسلة كلامه قبل أن يعد

جواباً على البديهة . والجواب السديد هو على الغالب من جودة الذكاء وعلية  
إذا سخاته لفظاً ان لا يضيع وقته أصلاً في البحث عنها فاللحن والخطأ أفضل من  
الوقوف في الالتقاء وإياك أن تضيع فرصة أسماع موسيقار حاذق في صناعة  
الكلام أي خطيب مصقع وفر من المدندنين فرارك من الوباء

هذا ما قاله المؤلف موريس آجام وكتابه علمي عملي معاً وهما الآن خلاصات  
لنقناها من كتاب آخر في هذا الفن وهو عملي محض واسم مؤلفه سيلفن روديس (١)  
واسم كتابه الخطيب الحديث توخى فيه تعليم الخطابة في الجملة لمن لا يستغنى  
عنها من الناس قال : أما النبوغ فيها فلا بد له من هبة إلهية . ولكن بالتعلم لاسلوب  
الخطابة يستطيع من يدخل المجتمع ويشترك في بعض الجمعيات الخيرية وتقايات  
العملة والمعلمين والأندية والجامع المختلفة أن يخطب على أسلوب حسن ولا ينجل  
من التعبير عما في فؤاده وان على المرء أن لا يلتقى بنفسه في ميدان الخطاب العام  
إذا كان موضوعه لم ينصح أو تافهاً فالأولى قبل كل شيء دراسة الموضوع للخوض  
في عباب الكلام الذي تكثر مناحيه والأسباب الملهمة إليه اليوم بعد اليوم

وخير ذريعة للمرء حتى لا يخونه الكلام ان يستظهر كثيراً من المفردات حتى  
إذا نسى لفظاً أقام غيرها مكانها من دون أن يتوقف فقد كان الشاعر توفيل  
غوتيه يقرأ كل يوم صفحة من المعجم ولا يبعد أن يكون شأن الشعارين بالذاك  
وبوداير والكاتب فلوربر على هذا النحو لما علم من تمكنهم من أساليب اللغة  
ومصادرهما فكانوا يتصفحون أيضاً هذه الكتب الضخمة التي جمعت نبوغ عنصر  
باجمعها وبدت بها مظاهر مدنيته المنوعة على اختلاف العصور . وأرى أن من  
المفيد التطريس على آثار أولئك الكتاب وأن يقرأ المرء كل يوم صفحة من معجم  
اللغة وكم من لفظ تذكر به صاحب الفكر عالماً وروايات وتواريخ وصفحة من  
الطبيعة وبلاداً وعصراً . ثم ان الالفاظ وحدها لا تكفي لأكثر مادة الخطيب  
ولا بد له من القوالب فعليه أن يحفظ جملاً مأثورة لطيفة تعلمه أساليب البلغاء

Silvain Roudès : L'orateur moderne

(١) كتاب الخطيب الجديد

أو الترية على الكلام أو فن تعلم الكلام في الجمهور اسان رودس

وتركيب الجمل على مختلف الصور ولا يبالغ في الاستشهاد بها فانه بذلك يضيع شخصيته ويكون ناقلاً كلام غيره فقط . وعليه أن يركب لنفسه جملاً يمكنه أن قوّلها ويلفظ بها بصوت جهورى كل يوم من ١٥ الى ٣٠ دقيقة ونجاحه مؤكّد لا محالة

تعلم الارتجال هو غاية الغايات التي يجب على مرید الخطابة أن يحاول بلوغها واليك ما عساه يهيء لك الطريق الى ذلك : افرض انك بما لقفته سابقاً من المعارف قد استعددت لأن تكتب بعض الشيء خطاباً لك على الورق فاترك الآن عادة تقييد فكرك في الكاغد وفكر في موضوع لك مدة ساعة أو ساعتين وذلك بينا أنت سائر أو راكب في حافلة أو منصرف الى عملك البدوى ان كنت ممن يتعاونون صناعة بيدك أو بينا تكون في مكتبك فالخطب سيان . انظر الى جميع النقط التي تعرض لفكرك وأت بالأعراضات وردها بما لديك من الحجج تنقضها بها وخر المادة العقلية التي بلغت منزلتها حتى اذا كنت في دارك بعزل عن المكدرات وجلبة الخارج اطرد من ذهنك جميع الشواغل الخارجة وخذ نفسك بما تريد أن تأخذه بها واجمع كل قوتك العقلية في الفكر الذي يأخذ من نفسك بنحط وتدبر فيما تريد بضع دقائق واشرع في التكلم جهاراً جائئاً ذاهباً في غرفتك تكلم على مهلك بدون أن تبحث عن تعابيرك ولا تهتم بحالة جملك ولا لصحتها من النحو والصرف وداوم بدون انقطاع ودع كلماتك تتساقط منك ولكن بان تصل بينها ما أمكن اتصالاً جيداً أو رديئاً فتقارب بينها وتكرر وتتشوش الافكار فالقطع على هذا الضرب من الكلام تنتهي في الدمدمة أو لا تنتهي ابداً وأنت لا تأخذنك قلق من ذلك بل ظل مشابراً أيضاً ونحط العوائق واطرح وراءك الفقرات التي لم تتلطف في رصفها ولا تبتئس أبداً لما لا تذكره حافظتك ولا لما يتخلل كلامك من المنافذ أو لضعف حججك وتفاهة براهينك وثابر ثم ثابر واذهب الى ادراجك لا تلوى على شيء وارفع صوتك حتى ينخفض وينحونك بطبعه

وإياك أن تحبط اذا لحظت ان النتيجة التي تحصل عليها حقيرة فان هذا الجهد الذي يبذلوا لك هزواً بانحلال السياق والسباق بين أجزائه ربما عبث بنشاطك

وخيب من أملك فليس هو من العبث بالدرجة التي تتصورها بادیء الرأي لاجرم أن مثل هذه التجربة تربوية ملائكة الخطابة لا تنتج شيئاً إذا اقتصر عليها . ومهما بلغت من الثبات في الخطة التي اختطتها لنفسك ورزقت من الصبر لتجديدها على الدوام فانك تصلح منطلقك بالتدرج والكلام الذي تدعوه يأتيك هفواً أكثر من قبل ولا تستمعي عليك الجمل وتلين مادة الكلام وتتلاحم أجزاءه على أسلوب حسن وتنجلي الافكار فتنال كل مرة نتيجة تحمد غب سراها فتصل بعد بفضل الثبات والصبر الى ما تريد بلوغه من مراقى الكمال وإياك اذ ذاك أن تقنع بغير سلطة الارادات العالية . لا يكفي السهولة في المنطق بدون ارتجال فكثرة مادة الكلام حسن ولكن الواجب تنظيمه وتخطيط الطريق الذي يجب عليه سيره حتى لا يضل في تافهات لا منفذ لها : ان تعين الخطة ضرورية في انشاء خطاب مكتوب وهو ضروري أكثر عند ارادة الارتجال . ان القرينة الخيلة والمنطق في الخطيب التي تظهر بانها منبعثة من ذهنه هي ثمرة التدريب والنظام العلمى بادیء بدء وبدونه لا رباط ولا سياق

ثم شبه الخطيب بالممثل في حركاته ولكن تمثيلاً حسناً بحسن استعمال حركاته وسكناته لا تأخذه رهبة ولا جزع : قال والاحسن أن يعتمد من يجب التبريز في هذا الفن أن يتمرن أمام أصحابه ويقوم بينهم خطيباً كما لو كان بين غرباء وهم يدلونه على نقصه ويبينون له عوراته وبصحة الارادة وفضل الانتباه يتوصل المرء الى ما يريد حتى اذا حصلت له أنسة بالكلام يشرع في خطابه ببطء والمستمعون لا يستمعون له بكليتهم أولاً بل أن لهم من أحواله أعظم جاذب . وعلى الخطيب أن يلاحظ وسط القاعة التي يخطب فيها أو آخر الحضور يحدد النظر فيهم ليدلهم بلسان حاله انه يعنى بأسماعهم واقناعهم

هذا محصل ما اخترناه من الكتابين في الخطابة عند الفرنسيين وهم من الامم المشهورة بفصاحتها وخطبائها فالسياسى الخطيب منهم هو الذى يتسلط على النواب ببيانه ويتولى الوزارات والسفارات وكما برز في هذا الفن استجاش أنصاراً وأحرز سمعة على وجه الدهر والخطيب بين العلماء هو الذى يستولى كل الاستيلاء على المجامع العلمية والكليات ويكرب الشعب باقواله . ويكثر أشياعه وأعوانه .

## أصل المعتزلة<sup>(١)</sup>

من العادة ان كل فرقة أو أهل مذهب اذا أرادت أن تصف الفرقة المخالفة لها تبخسها حقها ، وربما نسبت اليها ما لم تقله ، اعتقاداً منها بان تنفير الناس عن المخالف والدعوة الى المذهب لا يتيسران الا بهذه الطريقة الفتنة الباردة ، حتى ان بعضهم جوزوا الكذب على المخالف . وما ندرى أى دين سماوي أو مذهب فلسفي يجوز الكذب في أمثال هذه المسائل .

والمعتزلة ما خلوا ممن يرميهم بما ليس فيهم ، خصوصاً أيام استجرت المجادلات بينهم وبين الفرق الأخرى من أهل الاسلام ، أيام كانوا ممتعين على عهد أوائل الدولة العباسية بجريرتهم الدينية على أصولها ، ولم يلاقوا من أرباب السلطة شدة ولا عناء وقد كثرت بحث الغربيين في العصر الأخير عن المعتزلة ومنشأهم حتى قال بعضهم ان من سوء طالع المسلمين ان ينقرض المعتزلة فانهم كانوا معدلين لامزجة الحكومات وأرباب المذاهب الأخرى ، اذ جروا مع العقل وطبقوا المنقول على المعقول ، ونظروا الى الجوهر أكثر من العرض ، ومن حكم العقل في أقواله وأفعاله ، يحترمه أحبابه وخصومه على السواء .

ولقد استطلعنا طلع رأى أحد كبار علماء الاسلام<sup>(٢)</sup> في أمر المعتزلة فأملى علينا الجملة التالية فكانت خلاصة أحوالهم وغاية الغايات في الإفصاح عنهم ، قال دام نفعه ! في أواخر عصر الصحابة ظهرت ثلاث فرق من فرق الاسلام : أولها الخوارج وهذه الفرقة من الفرق التي اعترضت على علي بن أبي طالب في تجويزه التحكيم في أمر الخلافة وكانت تحكم بكفر الفاسق صريحاً كشارب الخمر ونحوه فضلاً عن يسعى في سفك دماء المسلمين لاجل مأرب دنيوي ومذهبها مبني على هذه القاعدة ، وكان في ذلك العصر قد دخلت الناس أفواجاً في دين الاسلام بسبب الفتوحات العظيمة وأكثرهم ممن لم يتهذب بمكارم أخلاق الدين ، فكان الناس يسمون المتساهل في الدين . فاسقاً ويجعلونه من المسلمين البتة ، وكان كثير من الناس يصرح بان الامور كانت مقدره عليهم تخفيفاً عنهم من الملام . وفي خلال

(١) نشرت في السنة الثالثة من مجلة المقتبس (١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م)

(٢) هو العلامة المصالح أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري المتوفى سنة ١٣٣٨ هـ

ذلك هبت فرقة لهم شدة تمسك بالدين وتحل بأدابه فأنكروا ذلك وصرحوا بان  
الانسان مختار في أعماله وان الله تعالى لو أجبر الانسان على عمله لم يؤاخذ عليه ،  
وجعلوا الناس ثلاثة أقسام : مؤمن وكافر وفاسق : فالمؤمن من يقوم بجميع  
شروط الدين ، والكافر الجاحد مطلقاً ، والفاسق من أتى بكبيرة . ومنعوا من  
تسمية الفاسق باسم المؤمن واعتزلوا مجلس الحسن البصرى لانه لم يرضى بالتصريح  
بسبب اسم المؤمن عن الفاسق فسميت هذه الفرقة المعتزلة

وفي أثناء ذلك ظهرت فرقة هي بالفرقة السياسية أشبه منها بالفرقة الدينية  
وهي فرقة الشيعة المشايعة لأمير المؤمنين على بن أبي طالب . والشيعة حزبان  
حزب منهم كانوا يقولون انه هو الاحق بالخلافة غير أن عوارض الاحوال أوجبت  
تأخيرها لكثرة أعدائه من المنافقين وغيرهم وكانوا لا يطعنون في الدين أخروه  
عنها وقسم يقولون انما أخروه لمداوة في أنفسهم لارعاية لمصلحة الامة ثم أخذ  
كل مذهب دوراً من الادوار كما يعلم من التواريخ المفصلة .

واذ كان الخوارج أرباب حرب وضرب وتحمس في الدين وعبادة ونسك  
ولم يكن لهم بصيرة في العلم كانت أمورهم العامة بسيطة جداً وأكثروا ما يقابلون  
به السيف . أما المعتزلة فكانوا في أمرهم أرباب تؤدة وتأن واستبصار بما يقتضيه  
الوقت وكان مقتضى مذهبهم القيام بانكار المنكر ولو أفضى الأمر الى سل السيف  
الا أن ذلك مشروط فيه الامكان . فكان المعتزلة يفيضون الى فريقين العامة والامراء  
أما الامراء فلما اشتروا نونه في الامارة من الشروط التي اذا انتشرت في أفكار العامة  
لم يتيسر لامير ان ينطلق في أمر الامة بما يشاء . وأما العامة فلأنهم ينفرون ممن  
يخرجهم عن الدين بمجرد أتيان المنكرات التي أطلق لهم العنان فيها من طرف  
خفي أمراء السوء الذين يهمهم ان تكون العامة ممن يمينونهم على مقاصدهم .  
وكانت هذه الفرقة أعظم الفرق في المناضلة عن الدين ورد شبه الملحدين ، وكان  
الجمهور يقولون لا حاجة لنا الى الجدل فان كل من خالفنا استتبناهُ فان قاب فيها  
ونعمت والا طهرنا الارض بسفك دمه عليها .

ولم يزل الأمر كذلك حتى أفضت التوبة الى المأمون وكان ممن خالط ناساً  
منهم وكان لهم ذكاء عظيم في مخالطة الطبقات العالية مع انكاشهم رشدة ورعهم

فتلقف المأمون أفكارهم فقويت في نفسه فلما أفضت الخلافة اليه بادرا الى إعلانها ، وكان مقتضى الحال ان يدعوا الى مذهبهم كما يقتضيه حال كل من أخذ بمذهب . الا أن المأمون للمبدأ والذي كان عليه وهو اطلاق الحرية للموافق له والمخالف وجد منى الواجب ان يطلق العنان لكل الفرق فالتى أخطأت يتيسر اقناعها بالحجة والبرهان والتي معها الحق ينبغي ان تتبع على مامعها منه . فانطلقت في عصره جميع الفرق وجعل في داره مجالس للمناظرات بين أرباب الملل والنحل وكان العصر المنفرد في ذلك

ثم لما أفضى الأمر الى من بعده خف اطلاق العنان لهم . غير أنه بقيت من ذلك بقية حتى أفضت النوبة الى المتوكل فقام في اضطهاد الفرق المخالفة للجمهور ورعاية المشرب العامة وخلصاً من فرقة اذا قوى أمرها في مشارق الارض ومغاربها كان فيها الخطر على أمر الخلافة لانها شرطت فيها شروطاً يصعب القيام بها على كثير . ولم تزل حال المعتزلة بين انخماض وارتفاع حتى انحطت الامة انحطاطاً رائداً وقبل انقراضها كان كثير من الملوك يسمى في ابادتهم بالسيف كما يعلم من التاريخ ولم يبق لهم ملجأ غير اليمن فان فيه تكون حزب ذو عده وعدة يصعب محوه وهم المسمون بالزيدية . فما الزيدية الا فرقة من فرق المعتزلة يخالفون جمهورهم في بعض مسائل الامامة ونحوها . ومذهب المعتزلة في كون الانسان مختاراً ليس كما ينقله عنهم المخالفون لهم فانهم ينقلونه على صيغة مستبشعة ينفر منها العوام فضلاً عن الخواص فن ثم وافقهم عليه كثير من علماء أهل السنة كما وافقهم على كثير من مسائلهم الفرعية التي استخرجوها . وكانت هذه الفرقة كثيراً ما تذكر في التاريخ بأنها معتزلة مع أن المترجم يكون من المخالفين للمعتزلة في باقي مسائلهم أشد المخالفة فكان يقع للناظر في التواريخ اضطراب . وحقيقة الأمر تفهم مما ذكره التاج السبكي في الطبقات فقد نقل في ترجمة القفال عن الحافظ ابن عساكر انه قال في القفال : بلغني أنه كان مائلاً عن الاعتدال قائلاً بالاعتزال في أول أمره ثم رجع الى مذهب الاشعري . قال السبكي : وهذه فائدة جلية انفرجت بها كربة عظيمة وحسيكة في الصدر جسيمة . فان مذاهب تحكى عن هذا الامام في الاصول لا تصح الا على قواعد المعتزلة وطال ما وقع البحث في ذلك حتى توهم انه معتزلي

واستند الوهم الى ما نقل ان أبا الحسن الصفار قال : سمعت أبا سهل الصعلوكي  
وسئل عن تفسير الامام أبي بكر القفال فقال : قدسه من وجه ودنه من وجه .  
أى دنه من جهة نصره مذهب الاعتزال . والقفال هو أستاذ عصره قرأ عليه  
الاشعري علم الفقه وقرأ هو عليه علم الكلام وهو معدود من كبار أئمة الشافعية  
وعلى السبكي ذلك بقوله : أعلم

ان هذه الطائفة من أصحابنا ابن سريج وغيره كانوا قد يرعوا في الفقه ولم  
يكن لهم قدم راسخ في الكلام وطالعوا على الكبر كتب المعتزلة فاستحسنوا  
عباراتهم . والمعتزلة هم الذين أحدثوا علم الكلام وكان الاولون يهون عنه كثيراً  
الا أن النفوس لما كانت مولعة بالعلم مطلقاً تابعهم عليه غيرهم وألغوا فيه كثيراً  
وأوهوا اللأئين لهم بأن الكلام المنهى عنه انما هو الكلام على طريقة المعتزلة غير  
أن الكتب التي ألفت على طريقة المعتزلة أمتن جداً لما كان في أصولهم من منع  
التقليد البتة ولذلك لم يكن بعضهم يقلد بعضاً وان كل انسان مكلف بقدر ما أداه  
اليه اجتهاده ووسعه ولا يخفى الفرق بين المقيد والمطلق .

وهم الذين وسموا أصول الفقه حتى ان أكثر المسائل المذكورة فيه هي من  
مبتكراتهم غير ان الأصوليين لم يحبوا ان يتركوها لهم وهذا ظاهر لمن يتتبع فن  
الاصول عصرراً فعصرراً وأما ما يرميهم به خصومهم من أن الاعتزال نشأ من انتشار  
كتب الفلسفة فهي فرية لأن الاعتزال وقواعده الاصلية نشأت قبل ترجمة كتب  
الفلسفة المتعلقة بالالهيات بلاخلاف وكثير مما قالوه كسألة الاختيار المطلق وسألة  
خاود العاصي مؤبداً ونحو ذلك كان يستعين خصومهم في الرد عليهم بها بكلام  
الفلاسفة . وانما كان دأب المعتزلة بمقتضى متانتهم ان يخوضوا في أى شىء كان  
من العلوم التي كانت قبل ولن يجروا على ما يظهر لهم لاعتقادهم وجزمهم بأنه  
لا توجد حقيقة تخالف الدين فكانوا أشد الناس اسراماً للخوض في الفنون وأكثروا  
المؤلفات المهمة في العلوم المنوعة ما عدا الفقه يدهم فيها أطول من يدمن يخالفهم  
اجمالا . والتاريخ يظهر ذلك بأجلى مظاهره . وأما الفقه فانهم أخذوا فيه بما أخذ  
به غيرهم لاعتقادهم ان الخطب فيه سهل غير أن لهم في الفقه دقائق غريبة يجدها  
الانسان في تضاعيف الكتب هم منشأها وأما الحديث فانهم رأوا كثرة الوضع

وظهر لهم أن التمييز بين الصحيح وغيره يعسر لاسيما ما روى من طرق غيرهم فانهم لا يطمئنون اليه لاعتقادهم ان كثيراً من أهل الورع والصدق من غيرهم ربما يجوزون وضع الحديث للمصلحة وشاهدوا في عصرهم أحاديث وضعت في حقهم مثل « القدرية مجوس هذه الامة » فنفروا من المحدثين وثلبواهم أشد ثلب ولما كان لهم علم الحديث أهم علوم الدين وهم أشد الناس ولوعاً به ذهبوا الى قاعدة غريبة وهي أن كل حديث لا يخالف القرآن وهو قريب من مقاصد الشارع أو كان مما يدل على مكارم الاخلاق سلموا به اجمالاً بدون نظر في رواته وما وجدوه مخالفاً لذلك ردوه البتة . ومن هذا نشأ كثرة ما تراه من ذكر الاحاديث في كتب مثل الجاحظ والزمخشري وغيرهما من أئمة المعتزلة منهم يبحثون عن القول لاعتقاديته .

غير أنهم يعتقدون ان من أخذوا بقوله كان على مذهبهم ومشر بهم . وقد وقع في التواريخ مناقشات كثيرة في مسألة نحل كثير من المشهورين في العلم والفضل . والسبب في ذلك ان كثيراً من المتقدمين كانوا لا يصرحون بما يصرح به المتأخرون فكان كل فريق يدعى ان فلاناً منهم ويظهر ذلك لمن راجع كتب مناقب المشهورين على طريقة المتقدمين فانهم كانوا يفيضون في كل شيء لاعلى طريقة المتأخرين الذين يطوون كل شيء لا يوافق ما ربه الخالص ظناً منهم أنهم بذلك يحسنون صنفاً وكثيراً ما يدكرون منقبة وهي في الباطن مثلبة وربما كانت موضوعة

ما يبلغ العاقل من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

هذا ما قاله ننقله بلفظه ومعناه من لسان ذلك الامام الكبير . وقد قال المرتضى :  
وأما ما أجمعوا عليه فقد أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثاً قديماً قادراً عالماً حياً لا لمعان ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر عيناً واحداً لا يدرك بحاسة ، عدلاً حكماً ، لا يفعل القبيح ولا يريد ، كلف تعريضاً للشواب ، ومسكن من الفعل وأزاح العلة ، ولا بد من الجزاء ، وعلى وجوب البعثة ، حيث حسنت ولا بد للرسول صلى الله عليه وآله من شرع جديد أو احياء مندرس أو فائدة لم تحصل من غيره وان آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن معجزة له وان الايمان قول ومعرفة وعمل ، وان المؤمن من أهل الجنة وعلى المنزلة بين المنزلتين

وهو أن الفاسق لا يسمى مؤمناً ولا كافرّاً الا من يقول بالارجاء فانه يخالف في تفسير الايمان وفي المنزلة فيقول الفاسق يسمى مؤمناً وأجمعوا على ان فعل العبد غير مخلوق فيه وأجمعوا على تولى الصحابة واختلفوا في عثمان بعد الاحداث التي أحدثها فكثرهم تولاه وتأول له وأكثرهم على البراءة من معاوية وعمر وبن العاص وأجمعوا على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي تعداد علمائهم مصنفات عدة كالمصايح لابن يزداد وغيره اه

هذا مقاله واحد منهم في حقيقة ما أجمعوا عليه . واليك مقاله الشهرستاني صاحب الملل والنحل وهولين منهم قال : والمعتزلة ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركاً وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى احترازاً عن وصمة اللقب اذ كان الدم به متفقاً عليه لقول النبي عليه السلام القدرية مجوس هذه الامة وكانت الصفانية تعارضهم بالاتفاق على ان الجبرية والقدرية متقابلتان تقابل تضاد فكيف يطلق لفظ الضد على الضد وقد قال النبي عليه السلام القدرية خصماء الله في القدر . والخصومة في القدر وانقسام الخير والشر على فعل الله وفعل العبد ان يتصور على مذهب من يقول بالتسليم والتوكل واحالة الاحوال كلها على القدر المحتوم والحكم المحكوم فالذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف لذاته ونفوا الصفات القديمة فقالوا هو عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته لا يعلم وقدره وحياته هي صفات قديمة ومعان قائمة به لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لمشاركته في الأهمية . واتفقوا على ان كلامه محدث مخلوق في محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه فانما وجد في المحل عرض فقد فنى في الحال واتفقوا على ان الارادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته لكن اختلفوا في وجودها ومحامل معانيها واتفقوا على نفي رؤية الله بالابصار في دار القرار ونفي التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكاناً وصورة وجسماً وتحيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط توحيداً واتفقوا على ان العبد قادر خالق لأفعاله خيراً وشرها مستحق

ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة والرب تعالى منزّه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كافر ومعصية لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لو خلق العدل كان عادلاً واتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلا الصالح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد وأما الأصلح واللطيف ففى وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلاً واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضل معنى آخر وراء الثواب وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار . وسموا هذا النمط وعداً ورعيدياً واتفقوا على أن أصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع . والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك وورود التكاليف الطاف للبارى تعالى أرسلها الى العباد بتوسط الانبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة واختلفوا في الامامة والقول فيها نصاً واختياراً .

وهنا ذكر الشهرستاني مقالة كل طائفة من طوائف المعتزلة مثل « الواصلية » أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال و « الهذيلية » أصحاب أبي الهذيل حمدان بن ابي الهزيل العلاف و « النظامية » أصحاب ابراهيم بن سيار بن هاني النظام و « الحائطية » أصحاب أحمد بن حائط و « الحدثية » أصحاب فضل بن الحدثنى و « البشرية » أصحاب بشر بن المعتمر و « المعمرية » أصحاب معمر بن عباد السامى و « المزدارية » أصحاب عيسى بن صبيح المسكنى بأبي موسى الملقب بالمزدار و « الثمامية » أصحاب ثمامة بن اشرس النيمري و « الهشامية » أصحاب هشام بن عمر الفوطى و « الجاحظية » أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ و « الخياطية » أصحاب أبي الحسين بن أبي عمرو الخياط و « الجبائية والبهشية » أصحاب أبي على محمد بن عبد الوهاب الجبائى وابنه أبي هاشم عبد السلام .

ومن رجال المعتزلة الحسنان عليهما السلام ومحمد بن الحنفية وسعيد بن المسيب وأبو الاسود الدؤلى وعلقمة والاسود وشريح من أصحاب عبد الله بن مسعود والحسن البصرى وعبد الله بن عمر وأبو الدرداء وأبو ذر الغفارى وعبد الله بن

عباس وغيلان بن مسلم الدمشقي قتله هشام بن عبد الملك وقتل صاحبه صالحا في  
أبشع صورة لانه أنكر على بنى أمية سوء سياستهم في الرعية وواصل بنى عطاء  
وهو الذي أتقذ أصحابه الى الآفاق وبث دعواته في البلاد فبعث عبد الله بن  
الحارث الى المغرب فاجابه خلق كثير وبعث الى خراسان حفص بن سالم وبعث  
القاسم الى اليمن وبعث أيوب الى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة  
وعثمان الطويل الى أرمنية . ومنهم عمرو بن عبيد وكان المنصور العباسي يبالغ  
في تعظيمه ورثاه وقامأ عهدان الخليفة رثى رعية بقوله :

صلى الاله عليك من متوسل      قبرا مررت به على مران  
قبر تضمن مؤمناً متخشعاً      عبد الاله ودان بالقرآن  
واذا الرجال تنازعوا في شبهة      فصل الحديث بحجة وبيان  
ولو أن هذا الدهر أبقى صالحاً      أبقى لنا عمراً أبا عثمان

ومنهم أبو الهذيل العلاف الذي قال فيه المأمون . أطل أبو الهذيل على  
الكلام كاطلال الغمام على الانام . ومنهم ابراهيم النظام وهو الذي يقول فيه  
الجاحظ الاوائل يقولون في كل الف سنة رجل لا نظير له فان كان ذلك صحيحاً  
فهو ابو اسحق النظام . وبشر بن المعتز الهلالي وأبو عمرو بن بحر الجاحظ  
وعبد الرحمن بن كيسان الاصم واحمد بن أبي دوداء وثمامة بن الاشرس ومنهم  
الجعفران اللذان يضرب المثل بعلمهما وزهدهما كما يضرب المثل في حسن السيرة  
بالممرين وهما أبو محمد جعفر بن مبشر الثقفي وابو الفضل جعفر بن حرب .  
ومنهم ابو جعفر الاسكافي وأبو عبد الله الدباغ وأبو علي الجبائي ومنهم ابو  
العباس الناشيء ومحمد بن عمر الصيمري والسيرافيان أبو القاسم وأبو عمران  
وقاضي القضاة عبد الجبار الهمداني . ومنهم الصاحب بن عباد والقاضي علي بن  
عبد العزيز الجرجاني والجوهري صاحب الصحاح والشريف المرتضى وأبو بكر  
الرازي وأبو بكر الدينوري

ومما يؤثر من أخلاق أئمة المعتزلة وورعهم ما قاله الواثق لاحمد بن أبي دؤاد  
لم تولى أصحابي أي (المعتزلة) القضاء كما تولى غيرهم فقال : يا أمير المؤمنين أن  
أصحابك يمتنعون من ذلك وهذا جعفر بن مبشر وجهت اليه بعشرة آلاف درهم

فأبى أن يقبلها فذهبت إليه بنفسه واستأذنت فأبى أن يأذن لي فدخلت من غير  
إذن فسل سيفه في وجهي وقال الآن حل لي قتلك فما تصرفت عنه فكيف أولى  
التضياء مثله . وروى أن أحد أئمتهم جعفر بن مبشر اضطرت به الحاجة حتى كان  
يقبل القليل من زكاة اخوانه فحضره يوماً بعض التجار فتكلم بحضرته في خطبة  
نكاح فأعجب به ذلك التاجر فسأل عنه فأخبر بمسكنته فبعث إليه بخمسة دنانير  
فردها فقيل له قد غدرناك في رد مال السلطان للشبهة وهذا تاجر ماله من كسبه  
فلا رجه لردك فقال جعفر : أنه استحسن كلامي افترائي ان آخذ على دعائي الى  
الله تعالى وموعظتي ثمناً لو لم أكن فعلت هذا ثم ابتداء في لقبلت . وروى أن  
بعض السلاطين وصله بعشرة آلاف درهم فلم يقبل وحمل إليه بعض أصحابه بدرهمين  
من الزكاة فقبل فقيل له في ذلك فقال : أرباب العشرة أحق بهما مني وأنا أحق بهذين  
الدرهمين لحاجتي إليهما وقد ساقهما الله الى من غير مسألة وأغواني بهما عن الشبهة  
والحرام .

وفي طمقات السبكي : قال ابن الصلاح هذا الماوردى عفا الله عنه يتهم بالاعتزال  
وقد كنت لأتحقق ذلك عليه واثأول له واعتذر عنه في كونه يورد في تفسيره  
في الآيات التي يختلف فيها أهل التفسير تغير أهل السنة وتفسير المعتزله غير متعرض  
لبيان ما هو الحق منهما وأقول لعل قصده إيراد كل ما قيل من حق أو باطل  
ولهذا يورد من أقوال المشتبهة أشياء مثل هذا الإيراد حتى وجدته يختار في بعض  
المواضع قول المعتزلة وما بنوه على أصولهم الفاسدة ومن ذلك . مصيره في الاعتراف  
الى أن الله لا يثائر عبادة الأوثان . قال في قوله تعالى ( وكذلك جعلنا لكل  
نبي عدواً شياطين الأنس والجن ) وجهان في جعلنا أحدهما معناه حكماً بأهم  
أعداء والثاني تركناهم على العداوة فلم نمنعهم منها . وتفسيره عظيم الضرر لكونه  
مشحوناً بتأويلات أهل الباطل تلبساً وتديساً على وجه لا يفتن له غير أهل العلم  
والتحقيق مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب الى المعتزله بل يجتهد في كتمان  
موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق ثم هو ليس معتزلياً مطلقاً فإنه لا يوافقهم في جميع  
أصولهم مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره في قوله عز وجل ما يأتيهم من ذكر  
من ربهم يحدث وغير ذلك ويوافقهم في القدر وهي البلية التي غلبت على البصريين  
وعيبوا بهما قديماً انتهى .

## أصل الوهابية<sup>(١)</sup>

لغظت ألسن الناس في هذه الايام بأصل الوهابية وتاريخهم ومعتقداتهم وتناقضت الروايات وكثرت التخرصات والقوم بين مفرط في التشيع لهم . ومفرط في التشيع عليهم . وود الكثير لو كان في الايدي ما يستند عليه لاستقراء الحقيقة واستجلاء الغامض من هذا السر وما عاد الى ذلك الا اختلاط المتمسكين بذلك المذهب مع أهل الامصار كالقطر العراقي والمصرى والشامى وغيرها من الاقاليم يتجرون بنتائج بلادهم من سمن وأباعر وشياه وأوبار وجلود تجارة رائدها الصدق في التعامل مع الكافة مما ضاعف الثقة بهم على تطاول الايام . وبعد فاني لا أتوخي في هذه العجالة الامام بعقائد تلك الطائفة لنأني صبرة واحدة فان كتبهم المطبوعة أكثرها في بلاد الهند تتكفل بذلك لمن يروم الاستبقاء . ولا ان أصف بلادهم وأحوالهم وصف مداح متجامل . أو قداح متجامل . بل غاية ما اطال اليه ذكر طرف من أخبارهم مشفوعة بصحة النقل والناقل لا تبعة تلحقه اذا خلصت منه النية

قال الجبرتي في تاريخه عجائب الآثار عند حوادث سنة ١٢١٨ هجرية ما نصه وحضر صحبة الحجاج كثير من أهل مكة هروبا من الوهابي ولغظ الناس في خبره ، واختلفوا فيه فمنهم من يجعله خارجياً وكافراً ، وهم المكيون ومن تابعهم وصادق أقوالهم ، ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه ، وأرسل الى شيخ الراكب المغربى كتاباً ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا . ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ونشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله . من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر الا نفسه ولن يضر الله شيئاً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

(١) نشرت في المجلد الخامس والعشرين من مجلة المقتطف (١٣١٨ - ١٩٠١)

وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أما بعد فقد قال الله تعالى ، قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين وقال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . وقال تعالى : وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . وقال تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه أكمل الدين وأتم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمرنا بلزوم ما أنزل إلينا من ربنا وترك البدع والتفرق والاختلاف وقال تعالى اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون وقال تعالى : وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون

« والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا بأن أمته تأخذ مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع وثبت في الصحيحين وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن . وأخبر في الحديث الآخر ان أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قالوا من هي يا رسول الله قال من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي

« اذا عرف هذا فعاوم ما قد عمدت به البلوى من حوادث الامور التي أعظمها الاشتراك بالله والتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الاعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ، التي لا يقدر عليها إلا رب الارض والسماوات وكذلك التقرب اليهم بالنذور . وذبح القربان والاستغاثة بهم في كشف الشدائد ، وجلب الفوائد الى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح الا لله . وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى الاغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصاً كما قال تعالى : فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار . فأخبر سبحانه انه لا يرضى من الدين الا ما كان خالصاً لوجهه وأخبر ان المشركين يدعون

الملائكة والانبياء والصالحين ليقرّبوهم الى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده واخبر  
أنه لا يهدى من هو كاذب كفار . وقال تعالى . ويعبدون من دون الله مالا يضرهم  
ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتبعون الله بما لا يعلم فى  
السموات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون فأخبر انه من جعل بينه وبين  
الله وسائط يسألهم الشفاعة فقد عبدهم وأشرك بهم وذلك ان الشفاعة كلها لله كما  
قال تعالى من ذا الذى يشفع عنده الا بأذنه وقال تعالى : يومئذ لا تنفع الذين  
ظلموا معذرتهم وقال تعالى يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له  
قولا وهو سبحانه وتعالى لا يرضى الا التوحيد كما قال تعالى : ولا يشفعون الا لمن ارتضى  
وهم من خشيته مشفقون فالشفاعة حق ولا تطلب فى دار الدنيا الا من الله كما قال تعالى  
(وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . وقال تعالى) ولا تدع من دون الله مالا ينفعك  
ولا يضرك فإن فعلت فانك اذاً من الظالمين .

فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء وصاحب المقام المحمود  
وآدم فمن دونه تحت لوائه لا يشفع الا باذن الله لا يشفع ابتداء بل يأتى فيخر الله  
ساجداً فيحمد بحامد يعلمه إياها ثم يقال ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع  
ثم يحد له حداً فيدخلهم الجنة فكيف بغيره من الاولياء والأنبياء

وهذا الذى ذكرناه لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين بل قد اجمع عليه  
السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الاربعة وغيرهم ممن سلك سبيلهم  
ودرج منهاجهم . وأما ما حدث من سؤال الأنبياء والاولياء من الشفاعة بعد  
موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها وامراجها والصلاة عندها واتخاذها  
أعياداً وجعل السدنة والندور لها فكل ذلك من حوادث الأمور التى أخبر بها  
النبي صلى الله عليه وسلم أمته وحذر منها كما فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم  
أنه قال لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين وحتى تعبد فئام من  
أمتى الأوثان . وهو صلى الله عليه وسلم حى جناب التوحيد أعظم حماية وسد  
كل طريق يؤدى الى الشرك

فنهى أن يخصص القبور وان يبنى عليه كما ثبت فى صحيح مسلم من حديث جابر  
وثبت فيه أيضاً أنه بعث علياً بن أبى طالب رضى الله عنه وأمره أن لا يدع قبراً

مشرفاً الا سواه ولا تمثالا الا طمسه ولهذا قال غير واحد من العلماء يجب هدم  
القباب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم .  
فهذا هو الذى أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر الى ان  
كفرونا وقتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرونا بهم وهو  
الذى ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحججة من كتاب الله وسنة  
رسوله صلى الله عليه وسلم واجماع السلف الصالح من الامة ممثلين لقوله سبحانه  
وتعالى ( وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ) فمن لم يجب الدعوة  
بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان كما قال تعالى ( لقد أرسلنا رسلنا بالبينات  
وأزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس  
شديد ومنافع للناس ) وندعو الناس الى إقامة الصلوات فى الجماعات على الوجه  
المشروع وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ونأمر بالمعروف  
وننهى عن المنكر كما قال تعالى ( الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا  
الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ) فهذا هو الذى  
نعقده وندين الله به فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له مالنا وعليه ما علينا و نعتقد  
أيضاً أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم والمتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة وأنه  
لا يزال طائفة من أمتة على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم  
حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك انتهى قال الجبرتى بمد إيراد ما تقدم . أقول  
ان كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن أيضاً وهو خلاصة لباب التوحيد وما علينا  
من المارقين والمتعصبيين . وقد بسط الكلام فى ذلك ابن القيم فى كتابه إغاثة  
اللهفان والحافظ المقرئ فى تجريد التوحيد والامام اليوسى فى شرح الكبرى  
وشرح الحكيم لابن عباد وكتاب جمع الفضائل وقمع الرذائل وكتاب مصابيد  
الشیطان وغير ذلك

وجاء فى تاريخ بغداد لعثمان بن سند البصرى عند الكلام على الوهابية  
ما يأتى . فن اعتقادهم تكفير عموم المسلمين الذين على الكفرة الأرضية إلا من اعتقد  
اعتقادهم . وسموا أنفسهم بالسلف وبالحمديين ويغضون ويلعنون جملة من علماء  
السنة مثل أبى الحسن الأشعري ويقولون أنهم هم الذين أسسوا قواعد الأدلة

والبراهين في علم التوحيد ومنه نشأت الفرق والخلاف بين الأمة المحمدية وإلا فقبله كانت الأدلة هي القرآن والحديث لا غير . وأيضاً يكفرون الامام ابن السبكي الشافعي ولكن ما اعلم السبب في تكفيره دون سائر المصريين . وياليت شعري ما ذنبه معهم وأظنه لكونه كان يغري الملوكة بابن تيمية وجماعته الخنابلة حتى حبسهم الناصر محمد بن قلاوون في الاسكندرية كما هو مذكور في الدرر السكامة لابن حجر

قال والحاصل ان الوهابين آذوا الأحياء والاموات ومن محاسن الوهابيين أنهم أماتوا البدع ومحوها . ومن محاسنهم أنهم أمنوا البلاد التي ملكوها وصار كلها كان تحت حكمهم من هذه البراري والقفار سلكها الرجل وحده على حمار بلا خفر خصوصاً بين الحرمين الشريفين ومنعوا غزو الأعراب بعضهم على بعض وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت الى الشام كأنهم اخوان أولاد رجل واحد وهذا بسبب قسوتهم في تأديب القاتل والسارق والناهب الى أن عدم هذا الشر في زمان ابن سعود وانتقلت أخلاق العرب من التوحش الى الأنسانية وتجد في بعض الاراضي المخصبة هذا بيت عنزي وبجنبه بيت عتبي وبقربه بيت حربى وكلهم يرتعون كأنهم إخوان وبها تين الدسيستين خدعوا جميع العوام يعنى بمحو البدعة وتأمين الطرقات والسبل خصوصاً بين الحرمين وأحبهم سائر الامم وغفلوا عن باقى عقائدهم . ورأيت لهم عقيدة منظومة يحفظها حتى رعاة غنمهم ومنها

وما الدين الا أن تقام شعائر وتأمين سبل بيننا وشعاب

فكأنهم جعلوا تأمين الطرقات ركناً من أركان الدين ويفهم عقلا من سياستهم انه اذا فقد القاتل والسارق والناهب فأى سبب يمنع عموم الناس من الاشتغال بالزراعة والتجارة واقتناء المواشى في البادية المخصبة للتكسب من البانها وأصوافها وجلودها واذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون فكان المسألة شبيهة بالدورية أى انه متى وجد الامان ارتفع السارق والقاتل

لاشتغالهم بمعاشهم الحلال ومتى اشتغلوا بالمعاش الحلال وجد الامان ولكن  
هذا الدور منفق الجهة

« ولولا ما في الوهابيين من هذه النزعة أعنى تكفير من عداهم لملكوا  
جميع بلاد الاسلام وأدخلوهم تحت حكمهم بطوعهم واختيارهم ولكن بسبب هذه  
النزعة أبغضتهم الامم وتسلطت عليهم الدول وغزاهم أسد الديار المصرية ابراهيم  
باشا بن محمد على باشا بأمر السلطان محمود سنة ١٢٢٨ وملك بلادهم ومحا آثارهم  
وأبادهم وأسكن عائلة المقرن أى بيت الملك وعائلة بن عبد الوهاب الديار المصرية  
( وما رجعوا الى بلادهم الا بعد ان عاد الحجاز الى الدولة العلية ) وهذه الفرقة  
المعبر عنها بالوهابيين هم اتباع محمد بن عبد الوهاب النجدى ولكنهم فى الحقيقة  
يسمون أهل الحديث لأنه كان نظيرهم موجوداً فى زمن الدولة العباسية وينكرون  
المناكير بالشدّة والغلظة مثل الوهابيين ويشورون على الخلفاء بسبب ان الجهاد فى  
اعتقادهم ركن من أركان الدين أنظر تاريخ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة  
من سنة ٣٠٠ هجرية وكانوا يسمونهم الحنابلة وأهل الحديث فى ذلك الزمن  
ويقولون قام الحنابلة وثار الحنابلة وكسر الحنابلة حانات الخمر وأدبو من شربها  
وكان بينهم وبين العباسيين مقابلات وحروب . ثم ثارت منهم فرق بالمشرق  
وبجزيرة الأندلس ويسمون الظاهرية وهم أيضاً أهل الحديث وكانوا ينكرون  
المناكير مع الغلظة ويشورون على الملوك وأكثرهم يموت بين قتيل وطريد .  
ثم انه ظهر لهم فرق فى دولة يوسف صلاح الدين وكانوا يسمون أهل الحديث  
ولهم ثورات وعداوات مع الملوك أيضاً وينكرون المنكر بغلظة وفضاظة وتسلسلوا  
الى زمن ابن تيمية الحرانى وتلاميذه ابن مقلح وابن القيم وابن عبد الهادي . ثم  
ظهرت هذه الفرقة التى عمت وطمت فى القرن الثانى عشر ويسمون بالوهابيين  
نسبة الى محمد بن عبد الوهاب النجدى والافنى الحقيقة أفعالهم وآثارهم هى أفعال  
الحنابلة الأقدمين وهى أفعال أهل الحديث فى القرون المتوسطة وأفعال الظاهرية  
فالمعنى واحد انما يسمون فى كل عصر باسم على اصطلاح أهل ذلك العصر اه »

أما ناظم عقد هذه الجماعة وصاحب دعوتها محمد بن عبد الوهاب النجدي الآنف ذكره فقد ورد في كتاب بنصرة الناقد لأبي الفتح عبد النصير الهندي ثم المدني نقلا عن محمد بن ناصر الحازمي في رسالة فتح المنان في ترجيح الراجح وتزييف الزايف من صلاح الاخوان انه محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن احمد بن راشد بن يزيد بن محمد بن يزيد بن مشرف هذا هو المعروف من نسبه ويذكر أنه من مضر ثم من بني تميم والله به عليم . أخذ عن أبيه وهم بيت فقه حنابلة ثم حج وقصد المدينة ولقي بها شيخا عالماً من أهل نجد اسمه عبد الله بن ابراهيم قد لقي أبا المواهب البعلبي الدمشقي وأخذ عنه وانتقل مع أبيه الى حريملا من نجد أيضاً ولما مات أبوه رجع الى العينية وأراد نشر الدعوة فرضى أهل العينية بذلك ثم جرح عنها بسبب الى الدرعية وأطاعه أميرها محمد ابن سعود من آل مقرن . ويذكر انهم من بني حنيفة ثم من ربيعة والله أعلم . وهذا في حدود سنة تسع وخمسين بعد المائة وألف وانتشرت دعوته في نجد وشرق بلاد العرب الى عمان ولم يخرج عنها الى الحجاز واليمن الا في حدود المائتين والألف وتوفي سنة ست بعد المائتين والألف اه

وقال أيضاً هو رجل عالم متبع الغالب عليه في نفسه الاتباع . ورسائله معروفة وفيها المقبول والمردود واشهر ما ينكر عليه خصلتان كبيرتان . الاولى تكفير أهل الارض بمجرد تلقيات لا دليل عليها . والثانية الاجترار على سفك الدم المعصوم بلا حجة واقامة برهان . وتتبع هذه جزئيات وهي حقيرة تغتفر مع صلاح الاصل وصحته والله أعلم . وقد بنى الشيخ محمد المذكور طريقته على اتباع بن تيمية ، وابن القيم في زعمه وأخذ من اقوالهما اطرافاً بحسب ما وقع له من الاطلاع والاشراف وقد أصاب في بعض ما نقله وأخطأ في البعض وساء فهما وأخذ على غير القصد في بعض وقد أحييت دعوته بعضاً من الشريعة وأماتت كثيراً من الباطل في نجد والحجاز رحمه الله وتجاوز عنه فيما أخطأ فيه وجزاه أحسن ما عمل به انتهى ماخصاً

وكتب العلامة الشوكاني اليماني في البدر الطالع في ترجمة سعود بن العزيز مانصه « فوصل اليه الشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب الداعي الى التوحيد المنكر

على المعتقدين في الاموات . وقال أيضا في ترجمة غالب بن ساعد شريف مكة في بيان اتباع صاحب نجد . وتبلغنا عنهم أخبار الله أعلم بصحتها . من ذلك انه يستحل دم من استغاث بغير الله من نبي أو ولي أو غير ذلك ولا ريب ان كان ذلك عن اعتقاد تأثير المستغاث به كتأثير الله يصير به صاحبه مرتدًا كما يقع من كثير من هؤلاء المعتقدين للأموات الذين يسألونهم قضاء حوائجهم ويقولون عليهم زيادة على تعويلهم على الله سبحانه وتعالى ولا ينادون الله جل وعلا الا مقترنًا بأسمائهم ويخصونهم بالنداء منفردين عن الرب فهذا كفر لاشك فيه ولا شبهة وصاحبه اذا لم يتب كان حلال الدم والمال كسائل المرتدين . وقال وبعض الناس يزعم انه يعني صاحب نجد يعتقد اعتقاد الخوارج وما أظن ذلك صحيحًا فان صاحب نجد وجميع اتباعه يعملون بما يعلونه من محمد بن عبد الوهاب وكان حنبليًا ثم طلب الحديث بالمدينة المشرفة فعاد الى نجد وصار يعمل باجتهادات جماعة من متأخري الحنابلة كابن تيمية وابن القيم وأضرابهما وهم من أشد الناس على معتقدي الاموات « وقد رأيت كتابًا من صاحب نجد الذي هو الآن صاحب تلك الجهات أجاب على بعض أهل العلم وقد كاتبه وسأله بيان ما يعتقد فرأيت جوابه مشتملا على اعتقاد حسن موافق للكتاب والسنة والله أعلم بحقيقة الحال وبلغنا انه وصل الى مكة بعرض علماء نجد لتقصيد المناظرة فناظر علماء مكة بحضرة الشريف في مسائل تدل على ثبات قدمه وقدم صاحبه في الدين وفي سنة ١٢١٥ وصل من صاحب نجد المذكور مجلدان لطيفان أرسل بهما الى حضرة مولانا الامام حفظه الله أحدهما يشتمل على رسائل لمحمد بن عبد الوهاب كلها في الارشاد الى اخلاص التوحيد والتنفير من الشرك الذي يفعله المعتقدون في القبور وهي رسائل جيدة مشحونة بادلة الكتاب والسنة والمجلد الآخر يتضمن الرد على جماعة من الفقهاء المقصرين من فقهاء صنعاء وصعدة ذكروه في مسائل متعلقة باصول الدين وبجماعة من الصحابة فأجاب عليها جوابات محررة مقررة محققة تدل على أن الجيب من العلماء المحققين العارفين بالكتاب والسنة . وقد هدم عليهم جميع ما بنوه وأبطل جميع ما دونوه لانهم مقصرون

متعصبون فصار مافعلوه خزيا عليهم وعلى أهل صنماء وصعدة وهكذا من تصدر  
ولم يعرف مقدار نفسه انتهى ملخصاً  
وقال القاضي العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلي في كتاب نفع العود في أيام  
الشريف حمود ومن كتب عبد العزيز بن سمود هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز ابن سمود الى من يراه من أهل المخلاف السليمانى خصوصاً  
أولاد الشريف حمود وناصر ويحيى وسائر اخوانهم وأولاد اخوانهم وكذلك  
أشراف بنى النعمى وكافة أشراف تهامة وفقنا الله واياهم الى سبيل الحق والهداية  
وجنبنا واياهم طريق الشرك والغواية . وأرشدنا واياهم الى اقتفاء آثار أهل  
العناية . أما بعد : فالموجب لهذه الرسالة ان الشريف أحمد بن حسين الفلقى قدم  
الينا فرأى ما نحن فيه وتحقق صحة ذلك لديه فبعد ذلك التمس منا ان نكتب لكم  
ما يزول به الاشتباه فتعرفوا دين الاسلام الذى لا يقبل من أحد سواه . فاعلموا  
رحمكم الله تعالى ان الله سبحانه أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل  
فهدى به الى الدين الكامل والشرع التام وأعظم ذلك وأكبره وزبدته اخلاص  
العبادة لله لا شريك له والنهى عن الشرك وذلك هو الذى خلق الله تعالى الخلق  
لاجله ودل الكتاب على فضله كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون .  
وقال تعالى : وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين واخلاص الدين هو صرف  
جميع العبادة لله تعالى وحده لا شريك له وذلك أن لا يدعى الا الله ، ولا يستغاث  
الا بالله ، ولا يذبح الا له ، ولا يخشى ولا يرجى سواه ، ولا يهرب ولا يرغب  
الا فيما لديه . ولا يتوكل فى جميع الامور الا عليه ، وان كل ما هنالك لله تعالى  
لا يصلح شىء منه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ولا شىء غيرها . وهذا هو بعينه  
توحيد الالهية الذى أسس الاسلام عليه وانفرد به المسلم عن الكافر وهو معنى  
شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله

فاما من الله تعالى علينا بمعرفة ذلك وعلمنا انه دين الرسل اتبعناه ودعونا  
الناس اليه والا فنحن قبل ذلك على ما عليه غالب الناس من الشرك بالله تعالى من  
عبادة أهل القبور والاستغاثة بهم ، والاستعانة منهم والتقرب بالذبح لهم ، وطلب

الحاجات منهم مع ما ينضم الى ذلك من فعل الفواحش والمنكرات ، وارتكاب الامور المحرمات . وترك الصلاة وترك شعائر الاسلام حتى أظهر الله الحق بعد خفائه ، وأحيا أثره بعد عفائه ، على يد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب أحسن الله تعالى اليه في آخرته والمآب . فأبرز ماهو الحق والصواب من كتاب الله المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الخ

ورسالة عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب . التي كتبها حين فتح الحرمين الشريفين شاهدة عدل على أنه برىء من تلك الافتراءات التي أفتروها على عقائده وعقائد أبيه وبنوا عليها تلك الزلازل والقلقل وان مذهبه عين مذهب الأئمة المحدثين والسلف الصالحين وتلك الرسالة منقولة في اتحاف النبلاء من شاء الاطلاع عليها فليرجع اليها . قال المستشرق سيديللوا الفرنسي في كتابه خلاصة تاريخ العرب ما نصه « أخذت العرب من ابتداء القرن الثامن عشر في الاستقلال بالحكم لقوتها وضعف أعدائها ولم تنقص الا اتخاذ مركز تجتمع حوله جميع الاذهان وترجع اليه في تدبير الامور فهامت الوهابية سنة ١٧٤٩ ميلادية فأخذت منها عبد الوهاب مركزاً وهو من قبيلة تميم اشتغل في صغره بالعلوم المعتادة عند العرب خصوصاً الفقه وسافر الى بغداد والبصرة وبلاد الفرس ثم أخذ يتفكر فيما يثير الحمية في أبناء وطنه فوجده أحياء الشريعة نقية من جميع البدع كخالها الاولى فالتزمهم المواظبة على العمل بالقرآن ونهاهم عن العلو في تعظيم النبي ( صلى الله عليه وسلم ) وعن تقديس الاولياء الذين هدم قبورهم وعن تعاطي المسكر وأنكر على الاتراك بعض الاحوال وقال ان الشريعة تقضي أن يخرج كل انسان خمس أمواله ( كذا ) زكاة وتحرم الزينة وتلزم القضاة بتحري الصدق وأخذ يعظّمهم بخطب عظيم تأثيرها لديهم بموافقها القرآن ومقصوده من ذلك استمالتهم الى الامور الحريية ليحيوا ما كان لا بائسهم من العظمة . وقد كان فان أقوى جميع قبائل نجد وفدت عليه وانتظمت تحت لوائه فجعل محمد بن سعود من قبيلة مصالح قائد هؤلاء الوفود وزج سعود ابنته وقلده الحكم السياسي على الوهابية لمعرفة بالقوانين العسكرية وقال أحمد سعيد البغدادي في كتابه نديم الادب « أما حقيقة هذه الطائفة فانها حنبلية المذهب وجميع ما ذكر المؤرخون عنهما من جهة الاعتقاد محرف وفيه

تناقض كلي لمن اطلع عليه بتأمل لان غالب مؤرخي الشرقين ينقلون عن الكتب الافرنجية فان كان المؤرخ المنقول عنه صاحب دراية وصادق الرواية تجدان من يترجم كتابه يجعل الترجمة على قدر اللفظ فيضيع مزية الاصل . وان كان المؤرخ غير صادق الرواية فمن باب أولى « الى أن قال « ومن أراد أن يعرف جلياً اعتقاد هذه الطائفة فليطالع كتب مذهب الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فانه مذهبهم أما بلاد نجد فقد وصفها محمد بن سليم الشهابي المدني في رسالته الرحلة الحجازية « أنها أرض مسطحة سهلة يقل وجود الجبال فيها والمشهور فيها جبلان أجاء وسامى وانها حسنة الهواء كثيرة الامطار والسيول وفي سفح جبل أجاء مدينة تسمى بندر حائل وهى مسورة ولها ثلاثة أبواب وبيوتها طبقة واحدة والقليل منها طبقتان مرتفعة البناء وفيها محال للقهوة مزية داخل البيوت على عادة العرب وفيها قصر أميرها والامير ينفذ أحكام القاضي على موجب القرآن الشريف والاحاديث النبوية والاقوال الصحيحة فيقتص من القاتل ويقطع يد السارق ويقوم حد الرجم ولا يوجد في بلاد نجد شاهد زور البتة حتى لو سمع الامير بشاهد زور يجلبه من أقصى نجد ويعزره وينفيه . وفي أوقات الصلاة يطوف مأمور من قبل الامير فى الاسواق والشوارع فاذا وجد واحداً لم يحضر صلاة الجماعة يسلبه عمامته ويجره الى المسجد وعند خروج الامير من الصلاة يعرضه عليه فيؤدبه الامير لترك الصلاة مع الجماعة وترى جميع أهل البلد والنازلين فيه متبارين فى صلواتهم مع الامام فى الجامع وهم فى غاية الذكاء والكمال والفصاحة العربية وحديثهم بينهم بالاحسان والتؤدة لا تسمع بينهم لغوا أبداً ولئن كان بقايا من عوائد العرب القديمة وسننها فى عندهم ولقد نزلت بين ظهرانىهم على عهد المرحوم الامير متعب ثلاثة أشهر ثم زرتهم مرتين فاكثر لما رأيت من انسانيتهم فامعنت النظر فى أحوالهم فلم أسمع فى حائل حاضرة الامير صوت طبل ولا غناء مزار ما خلا طبل الحرب فى وقته . واذا مات أحدهم لا تسمع عويل أهله وعياله سوى حزن وبكاء ويدفنون موتاهم حال وفاتهم ولو مات الميت فى الليل وفيها بعض أشجار مثمرة وبنواحيها فى سفح جبل أجاء قرية تدعى قفاد ذات عين ثرة تسقى النخيل والزروع وحاضرة أمير حائل تحيط بها من جهاتها الثلاث أرض سهلة ماعدا الجهة الرابعة حيث جبل أجاء الذى

يكثر فيه الربيع مسافة يومين وليلة وهي حمى جعله الامير لخاصته ويربى فيها خيله  
وهجده وابله ومواشيه . وفي محيط الحمى قرى رجال الامير وعلى بعد خمسة أيام من  
الحمى بلدة كبيرة تسمى عنيزة مسورة بسورين سور على نخيل يحيط بها وسور  
على البلدة وعلى مقربة منها مسيل ماء يجرى في الغالب وعلى أطرافه نخيل كثير  
وأكثر سكان البلدة تجار نجد وأعيانها . ويقابلها أيضاً بلدة كبيرة مسورة تسمى  
بريدة ولها قرى تابعة لها ونخيل كثير تدعى القصيم متصلة بالدرعية ومنها الى  
مدينة عظيمة تدعى العارض حيث مساكن حكام نجد وأمرائها آل سعود والامير  
في كل عام يأخذ من رعاياه الزكاة وفقاً للشرع من خيولهم وابلهم وأغنامهم  
ومواشيتهم ونخيلهم وزروعهم ولا يستثنى من ذلك الا الخيل المعدة للحرب والذي  
يجب عليه من الزكاة على وفق الشرع يجمعه عنده فيفترق بعضه على المحاويج والفقراء  
ويصرف البقية في المآدب وعطايا قاصديه حتى لا يبقى على رأس السنة منها شيء  
هذا طرف مما عثرت عليه من تضايف كتب مطبوعه ومخطوطة لمؤلفين  
متباينين في المشارب متفرقين في المشارق والمغارب أثبتته على حاله ولم أمسح من  
لفظه ولا ماله . ورأيت وسمعت كثيراً من مؤرخي الفرنجة وسياحهم تكلموا  
على هذا المذهب ومنهم المنصف والمجحف على ان المجحف منهم يفضل بصدقه  
أمثال أحمد جودت وعبد الرحمن شرف وأيوب صبرى وغيرهم من المؤرخين  
الأتراك الذين أطلقوا مباشرة الفاظ والتكفير والتضليل على أبناء هذا المذهب  
ورموا الكلام على عواهنه واتهموهم في أمانتهم . ولذا اقتصر على إيراد ما  
تقدم وتجافيت عن ترجمة أقوالهم لأنها أمليت بلسان التويه لا بلسان التاريخ .  
وعلى ما قيل في عباراتهم يتصرف ما كتبه أحمد زيني دحلان المكي بعبارات  
مخزنة مخجلة وقد رد عليه علماء الوهابية زاعمين ان الاحاديث التي ساقها في  
كتابه موضوعه بعد ظهورهم مطالبين القائل بها ببيان الكتب المأخوذة منها من  
أسفار المحدثين المتقدمين والمتأخرين مطيلين اللسان على علماء ذلك العصر ناسبين  
لهم الافتراء على حضرة صاحب الرسالة عمداً وياليت هذا المكي بين ما أخذه  
ليخلص من الطعن فان المقام مقام جدال .

واختلفت الاقوال في عدد المنتحلين لهذا المذهب في نجد ويقول شمس

الدين سامي صاحب قاموس الاعلام ان عددهم قد يرقى الى ثلاثة ملايين نسمة في نجد أما مسافة هذه الكورة فيقطنها الراكب على متون المطايا في عشرين يوماً عرضاً وثلاثين يوماً طولاً وأخبرني أحد الثقات الاثبات ان دعوة الوهابية تنتشر في الهند خصوصاً في الاعوام الاخيرة

\* \* \*

ويؤخذ مما ذكره حسين بن غنام الاحسائي<sup>(١)</sup> في كتابه روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام ، أن الناس في نجد قبل قيام محمد بن عبد الوهاب كانوا الى الشرك الخفي والظاهر . وقد وصف المقامات التي نذروا لها والشيوخ الذين اعتقدوا فيهم وانتقل الى « بلدان مصر وصعيدها وما فيها من الامور التي ينزه اللسان عن ذكرها وتعميدها خصوصاً عند قبور الصلحاء والعباد من ساداتها وعبيدها بها . »

وذكر ما يفعل من هذا القبيل في بلدان اليمن وقال ان حلب ودمشق وأقصى الشام والموصل وبلاد الاكراد والعراق وبنغداد والبصرة وقرى السلط والقطيف والبحرين وغيرها من بلاد العرب كلها واقعة في هذا . واستشهد بقصيدة للامير محمد بن اسماعيل الصنعاني وكان مشهوراً بالعلم والفهم قال واصفاً ما سرى من البدع :

طفى الماء من بحر ابتدا على الورى	فلم ينج منهم مركب وركاب
وطوفان نوح كان في الفلك أهله	فنجاهم والغارقون ثباب
فأنى لنا فلك ينجى وليته	يطير بنا عما نراه غراب
وأين الى أين المطار وكما	على ظهرها يأتيك منه عجاب
ترى الدين مثل الشاة قد وثبت له	ذآب وما عنه لهن ذهاب
لقد مزقته بعد كل ممزق	فلم يبق منه جنة وإهاب
وليس اغتراب الدين الا كما ترى	فهل بعد هذا الاغتراب اياب
فياغربة هل يرتجى منه أوبة	فيجبر من هذا البعاد مصاب
فلم يبق للراجي سلامة دينه	سوى عزلة فيها الجليس كتاب

(١) من مقالة لنا نشرت في المجلد الثلاثين في مجلة المقتطف ١٩٠٥ - ١٣٢٢

واستشهد له بقصيدة أخرى قال فيها :

ويعمر أركان الشريعة هادماً      مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد  
أعادوا بها معنى سواع ومثاله      بغوث وود بنس ذلك من ود  
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها      كما هتف المضطر بالصمد الفرد  
وكم عقروا في سوحها من عقيرة      أهلت لغير الله جهراً على عمد

\*\*\*

علام جعلتم أيها الناس ديننا      لأربعة لاشك في فضلهم عندي  
هموا علماء الدين شرقاً ومغرباً      ونور عيون الفضل والحق والزهد  
ولكنهم كالناس ليس كلامهم      دليلاً ولا تقليدهم في غد يجدي  
ولا زعموا حاشاهموا ان قولهم      دليل فيستهدى به كل مستهدى  
بل صرحوا انا نقابل قولهم      اذا خالف المنصوص بالقدح والرد

وترجم المؤلف شيخ الاسلام ابن عبد الوهاب بما لم يخرج عما تقدم من ترجمته آنفاً ومما قاله انه كان أكثر لبثه لأخذ العلم بالبصرة وأخذ في بث الدعوة ثم سكن حريملا مع والده مثابراً على دعوته تاركاً ما سلكه علماء سوء فانتظم في سلكه عصابة اتخذوه جليساً واتبعوا طريقته فقرأوا عليه كتب الحديث والفقه واشتهر في بلدان العارض من حريملا والعيينية والدرعية والرياض ومنفوحه وأنجاز لدعوته جم غفير وأقام في حريملا سنين واهتمدى به أحد الامراء عثمان بن معمر في العينية فأقام بها وساعده الامير على الارشاد فبدأ يعظم أمره ففشا الدين في بلدان العارض فأمر الشيخ الامير بهدم القباب والمساجد المبنية على قبور الصحابة وقطع الاشجار التي كان ينتابها الناس للتبرك وعدلت على السنن المشروعه فانكر عليه ذلك وحكوا بكفره واستحلال دمه وماله وتقول بعضهم عليه ووشوا به الى علماء الاحساء والبصرة والحرمين وافتوا الحكم بأنه أقبح الضلال والفساق وأشر الخوارج وحسبوا أنهم اذا حرشوا عليه الحكم يجدون في قتله فصنّفوا المصنّفات في تبديعه وتضليله وقالوا انه مغير السنة والاحكام يقصد تنفير الخواص والعوام ليشتاقوا الولاة فيعصوهم . ولما تظاهر الشيخ بالدعوة والناس قدأشربت

محبة المعاصي قلوبهم لم يكفر أولئك العربان وتوقف تورعا حتى تألبوا عليه وكفروه وجماعته ولم يأمر بسفك دم أكثر أهل الأهواء حتى حكموا عليه وأصحابه بالقتل والتكفير . ومع ما كان ينقل اليه من الاذى لم يكثرث بهم وكان يتضرع الى مولاه أن يشرح للحق صدورهم ولم يعامل أحداً بالسوء بعد القدرة عليه ولما وفدوا عليه ومثلوا بين يديه لم يوبخ أحداً منهم وأسدى اليهم معروفه وتجاوز عما فعلوه . فعل به أعداؤه ذلك وأكثرهم معترف أن ما أتى به هو الحق والصواب ولكن خشوا ان تسلب رئاستهم ودينياهم . توفي صاحب الدعوة وله من العمر قريب من اثنين وتسعين سنة كان في خلالها مستمراً في تحصيل نافع الزاد وصنف مصنفات كثيرة منها ( كتاب التوحيد ) ورسالة عامة للمسلمين تسمى ( كشف الشبهات ) جواباً لشبههم التي أدلوا بها فيها خلاصة دعوته ، ولباب علمه وكتب رسائل كثيرة في حث مجاوريه على الاخذ بما ارتآه والرد على خصومه قال من جملة جواب له ان تعليق التأمم من الشرك وكتب الطلاسم في الحجب هي من السحر والسحر يكفر صاحبه وان من دعا نبياً أو صحابياً أو ولياً مثل أن يقول ياسيدي فلان انصرني وأغنى كافر بالاجماع . وأنكر التذكير وقال انه من البدع وذكر السيوطي في الاوائل ان أول ما حدث التذكير يوم الجمعة لتهيأ الناس بصلاتها بعد السبعمائة في زمن الناصر بن قلاوون .

قال المؤرخ والسبب الذي دعا ابن عبد الوهاب الى الخروج من بلده العينية بعد ان كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ان امرأة من أهل تلك البلدة عرفت بسوء فأقرت على نفسها وتكرر ذلك منها فأعرض الشيخ عنها ثم أقرت وعادت الى الاقرار مراراً فسأل عن عقلها فأخبر بتامه وصحته فأمرها أياماً رجاء ان ترجع عن الاقرار الى الانكار . فأقرت أربع مرات فأمر برجمها فشددت عليها ثيابها لترجم بالحجارة على الوجه المشروع فخرج الامير عثمان وجماعة فرجموها حتى ماتت فلما طار هذا الخبر كثر لفظ أهل البدع وطارت قلوبهم شعاعاً فلما أعياهم رد ما قاله من تلك المسائل عدلوا الى ردها بالمكر والحيلة فشكوه الى شيخهم فأغروه به فطلب الى الامير عثمان يأمره بقتله أو اجلائه عن وطنه فأمر هذا الامير الشيخ بالخروج فجاء الدرعية فلما سمع الامير محمد بن سعود بتقدمه أسرع اليه مسامحاً عليه فلطف

منه محله وأخبره بان يمنع بما يمنع به نساءه وأولاده من جميع من عاداه وطلب الى الشيخ أن لا يرحل عن بلده وكان هذا الامير معروفاً في جاهليته بحسن السيرة فهاهده الشيخ على عدم الخروج وقام يدعو الناس الى التوحيد وآزره وزراء الامير وأعوانه واخوانه من أهل الدرعية وذلك في حدود سنة ١١٥٧ هـ وبقي الشيخ سنتين يناصح الناس وهاجر الى الدرعية خلق كثير بينهم زمرة من أهل البيوتات وسنة ١٢٠٦ هـ توفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحاله من العبادة في الصلاة والصيام مشهورة يتلو القرآن أبداً ويحج غالب الليل بالقيام والتأني في تنفيذ الاحكام من كتب الأئمة الاربعة المقلدة وكان يحج اليه المال من جميع بلدان المسلمين فيتفرقه عليهم في طريقة من الزهد مرضية وكان متكففاً من ذلك المال لا يأكل منه الا بالمهروف وكان سمحاً كريماً لا يرد سائلاً ومات ولم يخلف ديناراً ولا درهما وكان عليه دين كثير وفي عنه .

وذكر ابن غنام في تاريخه أيضاً غزوات أتباع ابن عبد الوهاب مع من جاورهم من القبائل والبلدان وكلها دائرة على بث دعوة واحتياز مغنم ومقابلة شر بمثله أخبار متشابهة كان يجري مثلها في تلك الاصقاع . ويظهر للمتأمل ان معظم تلك الحروب التي جرت على عهد ابن عبد الوهاب كانت للدين فلما مات عادت المطامع الى مجراها السابق . والغالب ان الامير النجدي وابنه الذين عملا بمشورة الشيخ طول حياته قاما ببث دعوته بين الامراء المجاورين بعد ان أشتدت شكيمتهما . ومن طالع هذا التاريخ وعرف حال الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا يلبث أن يقع في ذهنه ان كل تاريخ هذه الطائفة قتل وقتال وقيل وقال . نعم ان الامر على مايقول فقد ذكر لي أحد عقلاء النجديين يوماً مامعناه : يعاب على قومنا شيئان مهان أحدهما الفتن التي ما فتئت يثور ثأرها بين أظهرنا والدماء التي تهراق من ربيعنا ووضعنا وان تكن غارات اليوم بين ابن سعود وابن الرشيد مثلاً ليست كغارات أمس ( تفرد السلطان عبد العزيز بن سعود منذ بضع سنين بحكم نجد كلها ) المذكورة في تاريخ ابن غنام فان تلك كانت لنشر كلمة التوحيد بين أولئك الاعراب الجفاة وهذه تدعو اليها المطامع - وثانيهما انقسام الناس في نجد الى قبيلين قبيل يقال له الخضيرية وآخر يقال له قبيلية أوشيوخ فالاول في

حل من تعاطى الصناعات كلها والثاني لا يجوز له تعاطيها لان ذلك يعد شيناً عليهم وعرة في وجوه انسابهم فيقتصرون على التجارة والفلاحة . واذا تعاطى أحد الشيوخ وبمباراة ثانية الاشراف صناعة ما ، وكان في الاصل شريفاً يسقط عندهم شرفه ويمسى معدوداً من الطبقة النازلة طبقة الصناع والاجراء في بلاده طبقة الخضيرية . واذا تزوج أحد الشيوخ من بنى خضير أى صاحب الشرف من فاقده وكان للشريف عصابة يستحلون قتله مدعين انه أسقط شرفهم . قلت له وأنا أعيب عليكم أمراً ثالثاً ولطالما ذا كرتكم به وهو جمودكم على حالة واحدة في العلم وتحريركم مطالعة كتب لا تنالو مطالعتها من أنارة عقولكم ووقوفكم عند حد البحث في الدين دون الالتفات الى ما لا بد منه من علوم الدنيا . وما يخيل الى الا أن رجالكم الذين يأتون الامصار عارفون ما تمس اليه حاجة بنى نحلتهم من العلوم والصنائع وما ينقصهم من المتعمات التي لا أثر لها في باديتكم . اما انقسام الناس في نجد الى فئتين فليس بالامر الجديد فان الرومان كانوا كذلك بل كان اشراف أسلافكم العرب الخالص يرون الصنائع مضيعة لشرفهم ويمتدون في الغزو والغارة شرفهم الوحيد .

هذا ما لقفناه من تاريخ الاحسائي في أتباع محمد بن عبد الوهاب وهم الحنابلة بعينهم وما ابن عبد الوهاب الاداعية هداهم من الضلال . وساقهم الى الدين السمح واذا بدت شدة من بعضهم فهي ناشئة من نشأة البادية ، وقاماً رأينا شعباً من أهل الاسلام يغلب عليه التدين والصدق والاخلاص مثل هؤلاء القوم وقد اختبرنا عامتهم وخاصتهم سنين طويلة فلم نرهم حادوا عن الاسلام قيد غلوة أما الغزوات التي يغزونها فهي سياسية محضة ومذهبيهم برىء منها وما يتهمهم به أعداؤهم زور لا أصل له والله أعلم .

## دولة الادب في حلب<sup>(١)</sup>

على عهد سيف الدولة بن حمدان

لكل قرن من قرون العز في العرب نابغة أو نوابغ من الملوك والامراء ، ومثلهم من العلماء والادباء ، وقد امتاز القرن الرابع في الشام — واذا قلنا الشام عنينا هذا القطر المحبوب الممتد من العريش الى الفرات ومن جبال طورس الى البادية على نحو ما كان يعرفه العرب — بقيام بني حمدان فيه ، ورئيسهم سيف الدولة ابن حمدان استولى على القسم الشمالى منه ، والدولة العباسية قد أخذت تتناوشها ملوك الاطراف ، وأمراؤها في العراق ومصر والشام والجزيرة ، وأخذت دولة الخلافة بالضعف بصنع بعض الخوارج ، ومنهم من كان ينازعها السلطة علناً ، ومنهم من كان يشاركها فيها ويخضع لها في الصورة الظاهرة ، وبنو حمدان كانوا من هذا النوع الاخير .

أصل بني حمدان بطن من بني تغلب بن وائل من العدنانية ، وهم بنو حمدان ابن حمدان كانوا ملوك الموصل والجزيرة وحلب في أيام المقتدى بالله العباسى ، وأول من ملك منهم أبو الهيثجاء عبد الله بن حمدان ، ثم أخوه ابراهيم بن حمدان ، ثم أخوه سعيد ونصر ابنا حمدان ، ثم استولى على الشام وحلب معين الدولة على ابن أبي الهيثجاء بن حمدان ، ثم لؤلؤ مولى سعد الدولة بن حمدان ، ثم غلبه على ذلك صالح بن مرداس أمير بني كلاب واقترعه منه في سنة ٤٠٣ هـ

كان للقبائل سلطان في هذه الديار ، وأى سلطان ، لان البادية خلقت رجال حرب وغزو أكثر من الحضرة ، لذلك كان العرب قبل الاسلام بخمسة أو ستة قرون يحكمون هذه الديار أو يغربون على المعمور منها ، أو ينزلون في صقع معين منها فيبنون المصانع ويغتنون كما يغتنى أهل الحضرة ويعيشون عيشهم ، ومن هؤلاء العرب من كان لهم قبل الهجرة وبعدها مدنية رائعة مثل النبطيين في الجنوب وهم

(١) محاضرة القاها في نادي الشهباء بحلب يوم ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٢٣

عرب تعزى اليهم آثار البتراء أو وادي موسى وآثار جرش في عجلون ومثل الغسانيين في حوران والصفاء واللجاة ودمشق وحمص وغيرها ، ومثل التنوخيين في ارجاء حلب ومثل بنى ظلم وجذام ، وكلب ، وكلاب ، وتميم وطى ، وسليم ، وعاملة ، والضجاعم وغيرها من قبائل العرب التي نزلت الشام فكانت عرضة كل حين لاستيلاء البادية عليها لان أهلها أشد مراساً وأجراً على القتال يوم النزال ، ولان سلاح المدن والبادى كان واحداً اذ ذاك ، وهذام احداً بدولة الرومان لما أضافت هذه الديار الى مملكتها ان تنشئ على سيف البادية مخافر كثيرة ليأمن المعمور عيث البادية ، ومن جملة الدواعى الى استيلاء الحمدانيين على حلب طمع العرب فيها وغزوهما المرة بعد المرة ، ففي سنة ٢٩٢ هـ ولى الممكتفى أبا الحسن ذكوان بن عبد الله الاعور حلب ودام بها الى سنة ٣٠٢ فعانت بنو تميم فى أيامه فى حلب وأفسدت فساداً عظيماً وحاصروا ذكوان بحلب فكتب المقتدر الى الحسين بن حمدان فى انجاد ذكوان بحلب فأسرى من الرحبة حتى أناخ عليهم بخصاصة وأمر منهم جماعة ، وقامت على الحسين بن حمدان العرب من كلب واليمن والنمر وأسد وغيرهم فاجتمعوا بنوا حى حلب فخرج للقائهم سنة ٢٩٤ فهزموه حتى بلغوا به باب حلب

تبعث الشام مصر فى حكومتها سنة ٣٢٥ فأقام محمد لاخشيد والياً على حلب احمد بن سعيد الكلابى شيخ قبيلة بنى كلاب فكثرت الكلابيون اذا ذاك واقطع الخليفة العباسى الشام لمحمد بن رائق على ان يستخلصه من الاخشيدية الذين خلعوا طاعته فطرد ابن رائق وقاتل الاخشيدية فأستولى على دمشق .

وفى سنة ٣٢٩ بعث محمد الاخشيد قائده كافوراً الى الشام فى جيش عظيم فهزم عامل ابن رائق واستولى على حلب ، وفى السنة التالية عقد الصلح بين محمد الاخشيد واستأثر هذا بولاية حلب ، والاخشيد محمد بن طغج صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية والاعمال الحجازية كانت له سياسة حسنة مع جميع رعاياه أى أنه كان بارعاً بما نسميه اليوم ( سياسة العناصر ) فقد كتب الى ارمانوس ملك الروم من كتاب : « وسياستنا لهذه الممالك قريتها وبعيدها على عظمتها وسعقتها بفضل الله علينا واحسانه الينا ومعونته لنا وتوفيقه ايانا كما كتبت الينا وصرح عندك من حسن السيرة وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الاولياء والرعية ويجمعهم

على الطاعة واجتماع الكرامة ويوسمها الامن والدعة في المعيشة ويكسبها المودة والمحبة «  
وفي سنة ٣٣٩ وصل الروم الى قريب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو  
خمسة عشر ألف انسان ، وفي هذه السنة أيضاً قتل ابن رائق قتله ناصر الدولة بن  
حمدان وكتب بالامر الى الخليفة المتقي لله فخل ذلك من نفسه محلا عظيما ولقبه ناصر  
الدولة وجعله أمير الامراء وتقلد حاب وأعمالها ودانت له العرب ولقب شقيقه عليا  
سيف الدولة وخلع عليه وهذا هو موضوع كلامنا في هذه المحاضرة

\*\*\*

سار سيف الدولة الى حلب سنة ٣٣٣ فحكمها واستولى عليها وكان مع المتقي  
لله بالركة ، فلما عاد المتقي الى بغداد وانصرف الاخشيدي الى الشام لقي يانس المؤنسي  
بجلب فقصدته سيف الدولة فلما نازها فارقها يانس فحكمها سيف الدولة وهزم الروم  
لما قاربوها ودخل الاخشيدي سنة ٣٣٤ حلب وافسد أصحابه في جميع النواحي فقطعت  
الاشجار التي كانت في ظاهر حلب وكانت عظيمة جداً ( وقيل ان حلب كانت من  
أعظم المدن شجراً وأشعار الصنوبري تدل على ذلك ) ونزل عساكر الاخشيدي على  
الناس بحلب وبالغوا في أذى السكان لميلهم الى سيف الدولة

مال الناس هنا الى سيف الدولة لما اشتهر عنه من الشجاعة والكرم ومال  
أهل دمشق عنه فطردوه عن بلادهم لانهم رأوا منه ما يخافهم على أملاكهم ، وذلك  
أنه لما ملك دمشق اتفق - وهو مقيم بها - انه كان يسير هو والشريف العقيلي  
بنواحي دمشق فقال سيف الدولة : « ماتصلح هذه الغوطة الالرجل واحد »  
فقال له العقيلي ، هي لا قوام كثيرة ، فقال سيف الدولة : « لئن أخذتها القوانين  
السلطانية ليتبرؤا منها » فأعلم العقيلي أهل دمشق بذلك فكاتبوا كافوراً يستدعونه  
من الاخشيدي فجاءهم وأخرجوا سيف الدولة عنهم وظل ملك الحمدانيين مقصوراً  
في الشام على شماله ودخلت فيه حماة ، وحمص ، وسامية ، وجوسية ، وشيزر ،  
وكفر طاب وأفامية ، ومعرة النعمان ، وجبل السماق ومعرة مصرين ، والاثارب

\*\*\*

رسخت بسيف الدولة اقدام بني حمدان في هذه الديار واتخذ حلب عاصمته  
وكانت مملكته عبارة عن جند حمص وجند قنسرين والشغور الشامية والجزرية

ودييار مصر ودييار بكر ، ولما تم له الامر مثل في بلاده الصورة التي كان يريد ان يمثلها في دمشق وأبى أهلها عليه تمثيلها فاخذ يستصفي الاملاك ويصادر الاموال ويبنى الدور والقصور ويظهر من الابهه ما كان يعجز عنه الخوالف من العباسيين في بغداد ، والامويين في الاندلس والفاطميين في مصر

\*\*\*

لم تكن الجباية في تلك القرون على حالة مستقرة ، فهاورد عن الشارع وأصحابه من قوا نيتها العادله السهلة التطبيق كان يجري العمل به في البلاد كلها ، وكانت صورة التنفيذ تختلف باختلاف نزاهة السلطان وعنته عن أموال الناس ، وسيف الدولة كان على الأرجح من القائلين بان الغاية تبرر الوسيلة كان رحمه الله على ما أجمع عليه الثقات مثل ابن حوقل معاصره والازدي ، وسبط ابن الجوزي ، يجوز اخذ ما في أيدي الناس ليستعين به على غزو الروم ، ويسرف بجانب كبير يفضل به على الشعراء والادباء فيخرجه من أكياس الرعية وجيوبهم لينفقه في وجوه المبرات والعطايا ، ولذلك أسس في هذه المدينة الجميلة دولة في الادب لم يقم مثلها في الشام منذ نحو عشرين قرناً الى يوم الناس هذا لبس العالم شر محض ، ولا خير محض ، ولكل ماقل في الارض مزية كما ان له ما يهد عليه من الهنات ، وسيف الدولة من هذا القبيل لم تكن أعماله الى الخير لمحض بمصادراته وإسرافه ، وكانت له مزيتان قل أن يكتبها لغيره وهما : نهضة الآداب في هذه البلاد ، ودفع عادية الروم عنها ولولاه لعاد اليها سلطانهم بعد أن تقلص بالاسلام نيفاً وثلاثة قرون . وهذا الاجمال كما ترون يحتاج الى تفصيل كان هم سيف الدولة في سياسته الخارجية أن يضعف الروم في آسيا الصغرى فكان كثيراً ما يغزوهم ويفتح حصونهم ويسبي من أبنائهم ويخرب في زرعهم وقراهم ويستصفي أموالهم وعروضهم ، وقيل أنه غزاهم أربعين مرة كانت فيها بعض الغزوات له وبعضها عليه وكان همه في سياسته الداخلية تنجيد القصور وجمع الاموال والتجوز في أخذ الحلال والحرام منها ، و اظهار أبهة الملك ، والافضال على الشعراء وكانت عصبية من عرب الجزيرة مسقط رأسه ومنبعث دولته .

ومن عرب الشام مثل بنى كلاب الذين أدناهم وآمن سربهم فقهروا العرب وعلت كلمتهم . قال في مسالك الابصار : وبنو كلاب هم عرب أطراف حلب والروم ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لاتعد . ولا تزال ( أى فى القرن الثامن ) تباع بنات الروم وأبناؤهم من سباياهم . ويتكلمون بالتركية ويركبون الاكاديش وهم عرب غزو . ورجال حروب وأبطال جيوش . وهم من أشد العرب بأساً وأكثرهم ناساً .

قل فى أيام سيف الدولة غزو الروم لمدينة حلب . وكانوا يغزونها السنة بعد الأخرى ويميثون فى ارباضها وقراها ويمحرقون ويخربون ويسبون دع غزوتهم لها سنة ٣٥١ أيام استولوا عليها دون قلمتها ولم يعلم سيف الدولة بالخبر فخرج اليهم فيمن معه فقاتلهم فلم يكن له قوة الصبر لقله من معه فقتل أكثرهم ولم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد فانهم سيف الدولة فى نفر يسير وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب وتسمى الدارين فوجد فيها لسيف الدولة ثلثمائة بدره ( والبدره كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار من الدراهم ويبلغ مجموعه نحو مليونى دينار باصطلاحنا اليوم ) وأخذ له ألفاً وأربعمائة بقل ومن خزائن السلاح ما لا يحصى وأخذ الجميع وخرب الدار وملك الحاضر وحصر المدينة فقاتله أهلها وهدم الروم فى السور ثلثة فقاتلهم أهل حلب عليها . فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها فلما جنهم الليل عمروها . فلما رأى الروم ذلك تأخروا الى جبل الجوشن . ثم ان رجال الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها فلحق الناس أموالهم لينعموها فخلا السور منهم فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعهم أحد فدخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا ولم يرفعوا القتلك حتى تعبوا وضجروا وكان فى حلب الف واربعمائة من الاسارى فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلوا الناس وسبوا من البلد بضعة عشر ألف صبى وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة . فلما لم يبق من الروم ما يحملون عليه الغنيمة أمر الدمستق باحراق الباقي واحراق المساجد . قال ابن الاثير ، وكان عدد عسكره مائتى الف رجل منهم ثلاثون ألفاً بالجواشن ( الدروع ) وثلاثون ألفاً للهدم واصلاح الطرق من الثلج وأربعة آلاف بقل

يحمل الحديد . وكانت هذه الموقعة بسفح ( بالقوسا ) فاحرقوا جامعها  
بيد ان هذه الواقعة وأمثالها لم تكن من همة سيف الدولة فظل على غزو الروم ليكف  
عاديتهم عن هذه الديار ، وكانت له طرق غريبة في الرحمة من ذلك انه سار مرة  
بالبطارقة الذين في أسره الى الفداء وكان في أسر الروم ابن عمه أبو فراس وجماعة  
من أكابر الحلبيين والحمصيين فاخذ بالفداء ولما لم يبق معه من أسرى الروم أحد  
اشترى الباقين كل نفس باثنين وسبعين ديناراً حتى نفد ما معه من المال فاشترى  
الباقيين ورهن عليهم بدنته ( درعه ) الجوهر المعدومة المثل ، ثم لما لم يبق أحد  
من أسرى المسلمين كاتب فقفور ملك الروم على الصلح ، قال ابن الوردي : وهذه  
من محاسن سيف الدولة

ولقد امتازت دولة سيف الدولة بمزيتين الاولى سياسية اسلامية ، والثانية  
علمية أدبية ، فزيتها السياسية انه كثيراً ما أغار على الروم وجعل دينه التخریب  
في بلادهم ليردهم عن قصد بلاده لانهم كانوا يطمعون فيها منذ القديم ويذكرون  
من تاريخها انهم حكموها طويلاً ، فكان بعمله سداً حاجزاً دون انبعاثهم الى هذه  
البلاد فخدم بذلك الاسلام والعرب ، والمزية الثانية لدولته جعلها كحضرة بنى  
العباس على ضيق رقعتها وذلك في الافضال على العلم والادب فكان يقصده أهل  
هذا الشأن فينزلهم في بلاده على الرحب والسعة ويبرهم بصلاته ، قال في دائرة  
المعارف الاسلامية : « ان الفضل الذي احرزه سيف الدولة ابن حمدان بنشر  
العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن أعماله الحربية »

ومما يؤخذ عليه تفاليه في الافضال على الشعراء والادباء ، على ان منهم كآبي  
الطيب المتنبي مثلاً من فارقه بعد ان منعه الاقطاعات والانعامات الكثرية  
ليستجدي اكف كافور في مصر ، فقد اعطى سيف الدولة شاعره المتنبي ضيعة  
بالمعرة اممها ( صف ) اقطاعاً له ، واقطع قرية ( عين جارة ) وهي من الضياع  
الكبرى على ابن احمد بن البازيار نديمه عدا ما كان يناله من صلاته ، وذكروا ان  
الناشيء الاحصى دخل على سيف الدولة فانشده قصيدة له فيه فاعتذر سيف الدولة  
بضييق اليد يومئذ وقال له اعذر فما يتأخر حمل المال فاذا بلغك ذلك فاننا نضاعف  
جائزتك ونحسن اليك نخرج من عنده فوجد على باب سيف الدولة كلاباً تذبج

لها السخال وتطعم لحومها فعماد الى سيف الدولة فانشده هذه الابيات :

رأيت بيباب داركم كلابا تغذيها وتطممها السخالا

فما في الارض ادبر من اديب يكون الكلب أحسن منه حالا

ثم اتفق ان حملت الى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال فضاغ منها بغل بما عليه وهو عشرة آلاف دينار وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشيء الشاعر بالأحص فاخذ ما عليه من المال واطلقه ثم جاء حلب ودخل على سيف الدولة وانشده قصيدة يقول له فيها :

ومن ظن ان الرزق يأتي بحيلة فقد كذبتة نفسه وهو آثم

يفوت الغنى من لا ينام عن السرى وآخر يأتي رزقه وهو ذائم

فقال له سيف الدولة بحياتي وصل اليك المال الذي كان على البغل فقال نعم

فقال خذه بجائزتك مباركاك فيه

ان ما صدر عن سيف الدولة غاية في الكرم ولكنه لا يجوز في شرع العقل أن تجبي هذه الاموال من الفقراء والاغنياء لتصرف في مصالح الامة ثم يأخذها شاعر واحد ومعلوم ان العشرة آلاف دينار في القرن الرابع لا تقل قيمتها عن مئة ألف دينار في هذا القرن ولذلك قال ابن نباتة في مدح سيف الدولة وقد تبرم بكثرة ما ناله من عطائه :

قد جدت لي باللهي حتى ضجرت بها وكدت من ضجر أثني على البخل

ان كنت ترغب في بذل النوال لنا فاخلق لنا رغبة أولا فلا تنل

لم يبق جودك لي شيئاً أومله تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل

مثال آخر من اسراف الدولة : ذكر انه ضرب دنائير خاصة للصلوات في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعاليه اسمه وصورته ، قال بعض المؤرخين في حوادث سنة ٣٥٤ فيها صاهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة فزوج ابنته أبا المكارم وأزوج أبا المعالي بابنة ناصر الدولة وأزوج أبا تغلب بابنته ست الناس ، وضرب دنائير في كل دينار ثلاثين ديناراً وعشرين وعشرة عليها مكتوب : محمد رسول الله ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، فاطمة الزهراء ، الحسن ، الحسين ، جبريل ، ( وكان سيف الدولة يرى رأى الشيعة ) وعلى الجانب الآخر : « أمير المؤمنين

المطيع لله الاميران الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة الاميران أبو تغلب وأبو  
المكارم ، وجاد بما لم يجد به أحد يقال أن المبلغ الذي جاد به سبعمائة ألف دينار .  
فأقول لكم بمن يجود بهذا المبلغ في عرس وهو مبلغ جسيم لا تقل قيمته اذا  
قدرناه بسكة زماننا عن سبعة ملايين دينار ، ان هذا العمل عمقوت شرعاً وعقلاً  
لانه التبذير بعينه

ومما ذكره المؤرخون ان سيف الدولة كان مرة في بغداد فدخل على جماعة  
في مجلس أنسهم فرفعوا منزلته بدون أن يعرفوه وشاركهم في طربهم ، ولما تقوض  
المجلس طلب ورقة ودواة وكتب رقعة وتركها وانصرف ، فنظر أصحاب المجلس في  
رقعته فاذا هي سفتجة بالف دينار يؤديها وكيله في دار السلام فلما حملوا اليه خطه  
سألوه من عساه أن يكون الذي جاد بهذا المبلغ فقال لهم هو سيف الدولة بن  
حمدان . وكان كثيراً ما يفتقد رجال الدولة في بغداد ويتمهد بعضهم علمائها وشعراءها  
ولكن عطاياهم للشعراء أجزل فقد كان يعطى المعلم الثاني أبا النصر الفارابي أربعة  
دراهم في اليوم أي القدر الذي يستطيع به فيأسوف الاسلام أن يعيش عتس  
الكفاف على حين كان يعطى ابن عمه أبا فراس ضيعة تغل الف دينار في السنة  
من قرى منبج جائزة عن بيت استجاده ، وأبو فراس هو الذي قال فيه الصاحب  
ابن عباد : « بدىء الشعر بملك - أي بامرئ القيس - وختم بملك أي  
بابي فراس »

\*\*\*

وبهذا رأيتم أن المال لا قيمة له في نظر سيف الدولة . فقد ذكروا - وهو  
مما يعاب عليه - ان الخليفة المتقي العباسي لما استولى البريدي على بغداد استنجد  
ببني حمدان أمراء الموصل فطلب سيف الدولة من الخليفة مالا لينفقه في الجيش  
حتى يقويه ويمنع الأتراك من بغداد فاعطاه الخليفة أربعمائة الف دينار ففرقها  
سيف الدولة في أصحابه ثم هرب سيف الدولة ودخل « تورون » بغداد وملكها  
ومنها ان أبا الحصين على بن عبد الملك الرقي ولي قضاء حلب وكان ظالماً فاذا مات  
انسان أخذ تركته لسيف الدولة وقال « كل من هلك فليسيف الدولة ما ملك »  
ولما مات هذا القاضي رفسه سيف الدولة برجله فيما قيل . وقال له قبحك الله كم

كنت تزين لى الظلم وذكّر بن حوقل في كلامه على بالس « مسكنة » : ان سيف الدولة بعد انصرافه عن لقائه صاحب مصر وقد هلك جميع جنده انفذ المعروف بابي الحصين القاضي فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر ولم يطلق لهم النفوذ فاخرجهم عن اجمال وأطواف زيت الى ما عدا ذلك من متاجر الشام في دفعتين بينهما شهرين قالائل وأيام يسيرة ألف ألف دينار . وقال ابن حوقل أيضاً « أن نصيبين لم تزل منذ من أول الاسلام تضمن بمائة ألف دينار الى سنة ٣٦٠ فاكب عليها بنو حمدان بصنوف من الجور وتجديد الكلف الى ان حمل ذلك بنى حبيب وهو بنو عم بنى حمدان على ان خرجوا بذراريهم ومواسيهم وثقلهم في اثني عشر ألف فارس الى بلد الروم فتنصروا باجمعهم وأوثقوا ملك الروم من انفسهم بعد أن أحسن لهم النظر في انزالهم على كرائم الضياع ونفائس المتاع فعادوا الى بلد الاسلام على بصيرة بمضاره . وعلم باسباب فسادهم : وقلوبهم تضطرم حقداً فلحق بهم كثير من الخلفين عنهم فشنوا الغارات على بلد الاسلام وافتتحوا بعض الحصون وألحقوا أسوار بعضها في الارض وخربوا الضياع وتزايدت ثقة الروم بهم الى ان جعلوا لهم الارزاق والاعطية وصاروا خاصة الملك وفتحوا له المضايق واطعموه في أنطاكية والمصيصة وحلب وطرسوس ،

هذا ما ذكره الجغرافي الرحالة بن حوقل في أعمال سيف الدولة على انه قد وسم كتابه باسمه وقد سكت بعض المؤرخين عن ذكرها بتاتاً وأشار اليها بعضهم بصورة مختصرة قال ابن مسكويه « كان سيف الدولة معجباً بنفسه يجب أن يستبد برأيه كريماً شجاعاً محباً للفخر والبذخ . مفرطاً في السخاء والكرم . شديد الاحتمال لمناظريه والعجب بأرائه سعيداً مظفراً في حروبه جائراً على رعيته اشتد بكاء الناس عليه ومنه .

ومن جملة بذخه أنه كان يقف على مائدته اذا أكل أربعة وعشرون طيبياً . وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه عامين ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم . ولقد قيل انه اجتمع لسيف الدولة بن حمدان مالم يجتمع لغيره من الملوك كان خطيبه ابن نباتة الفارقي ومعامه بن خالويه ومطر به الفارابي وطباخه كشاجم وخزان كتبه الخالديان ( وهما يشبهان الاخوين الافرنسيين ليكونسكور )

والصنوبرى ومداحه المتنبي والسلامى والوأواء الدمشقى والبغاء والنامى وابن نباتة السهدى وغيرهم بل انه اجتمع ببابه ما لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء من شيوخ الشعر ونجوم الدهر وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز بما يمدح به . ولقد أورد صاحب اليتيمة من شعراء سيف الدولة ومن كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من أدبهم فى سوقه ما هو بهجة النفوس مدى الايام ، وربما قل فى الملوك من مدح يمثل ما مدح به سيف الدولة حتى أن كلا من أبى محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبى الحسن على بن محمد السميساطى قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت

وكل هذه الاجادة فى الشعراء وتخرج الرجال كانت منبعثة من وراء اعطاء سيف الدولة للمال بدون حساب ، أجاد شعراء الشام لانهم رزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبنى ورقاء هم كما قال الثعالبي بقية العرب المشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف والقلم . ومامنهم الأديب جواد ، يحب الشعر ويفتقده ويشيب على الجيد منه فيجزل ويفضل ، وبنى ورقاء أبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله أبناء ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوادها والمختصين بسيف الدولة ، وكان جعفر من بيت أمة وتقدم وآداب وكان المقتدر يجريه مجرى بنى حمدان ، وتقلد عدة ولايات وكان شاعراً كاتباً جيد البديهة والروية ، وكان يأخذ القلم ويكتب ما أراد من نثر ونظم كأنه عن حفظه وكان بينه وبين سيف الدولة مكاتبات بالشعر والنثر مشهورة

وان بابا يقف فيه أمثال أبى الطيب المتنبي وأبى عبادة البحتري من الذين انتهت اليهم الرئاسة فى هذه الصناعة ومثل النامى والبغاء وكشاجم والصنوبرى وابن خالويه وابن جنى والبازيار والصفيرى والناشئ والبنص والرقي وابن نباتة والفارابى وابن كشكر اياوعيسى الرقى وغيرهم من العلماء والبلغاء والشعراء والندماء أن باباً يقف فيه أمثال هؤلاء هو باب ولاشك عظيم ، وفضل صاحبه على الآداب جسيم

\*\*\*

تجأت فى عهد سيف الدولة فى ديار الشام روح غريبة فى الادب العربى وظهر

بمظهر لم يسبق له عهد مثله . ولا جاء في القرون التالية شبه له ونظير اللهم الا اذا كان على عهد الامويين . ولم تبلغنا أخبار شعرائه . وقد استنماد من هذه الحركة الأدبية القاصي والداني كان أبو بكر الخورزى في ريعان عمره قد دوح بلاد الشام وحصل من حضرة سيف الدولة بحلب في مجمع الرواة والشعراء . ومطرح الغرباء والفضلاء فاقام ما أقام بها على أبي عبد الله بن خالويه وأبي الحسن السمساطي وغيرهما من أئمة الادباء . وأبي الطيب المتنبي وأبي العباسي النامي وغيرهما من فحول الشعراء بين علم يدرسه وأدب يقتبسه . ومحاسن ألفاظ يستفيدها وشوارد أشمار يصيدها . وهو أحد أفراد الدهر وأمراء النظم والنثر وكان يقول : ما فتق قلبي . وصقل ذهني وأرهف حد لساني وبلغ هذا المبلغ في الانك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت باجزاء نفسي

قام سيف الدولة بهذه النهضة الادبية وقد كاد القرن الثالث في الشام يخلو من الشعراء والادباء لانهم قصدوا بغداد عاصمة الملك وبقيت الشام بمعزل . ولم ينبغ في هذا العصر غير رجال في الحديث والمغازي والفقه . وضعف الادب حتى أخذ ابن حمدان بيده وأيدى المشتغلين به فكان القرنين السالفين كانا كالمقدمة للكتاب الكبير الذي صدر في القرن الرابع وشرحه نوابغ الادب العربي أحسن شرح وفيه قام أساطين الشعر أبو تمام وأبو الطيب وأبو عبادة . واليهم انتهت الزعامة في الاجادة

بلادنا بلاد الشعر . والشعر كان مبدأ دخول العرب في الحضارة . لم يحرصوا على شيء حرصهم على روايته ودرايته . وأشد ما يكثر الشعراء في أرض صح أقليمها . واعتدل نسيمها وطابت تربتها وأديمها . وصفت أمواها وسمح نميرها ، وكثرت ظلالها بأشجارها وغردت أطيارها في أسجارها وهذه الحالة على حصة موفورة في القطر الذي يتاخم جزيرة العرب من شمالها فكان شعراء الشام وما يقاربها أشعر من شعراء العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام والسبب في تبرزهم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قريبهم — كما قالوا — من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز . وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة السننهم من الفساد العارض الا لسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم

وإذا أُضيفت الى هذه الاسباب الطبيعية أسباب أخرى من تنشيط ملك  
واعجاب أمة بممثل العالم أو الشاعر والكاتب تفتحت القرائح وتجلت نبوغ  
الافراد في أجمل مظاهره ، كما جرى في أيام سيف الدولة الذي يشبهه من كثير من  
الوجوه لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، هذا مع اعتبار الفرق بين العصرين ، فإن  
ابن القرن التاسع لا يتأتى ان يكون مثل ابن القرن التاسع عشر وابن غربي آسيا  
لا يصح بحال من الاحوال أن يشبهه ابن غربي أوروبا ، ولكن الرجال قديمتشابهون  
على كل حال ووجه الشبه ظاهر بين الملكين ، ولا سيما فيما يتعلق بالمعارف والآداب  
ولكن عمل لويس الرابع عشر اتصل بعده وما زال في نمو وعلو ، وعمل سيف  
الدولة زال - وبالأسف - بزواله ، وهذا أهم فرق بين هذا الشرق وذاك  
الغرب ، هناك يتسلسل الفكر قرونًا ، وهنا ينقطع ويتحول ، هناك تتناول  
الجماعات بعد الافراد فتحسنه وتزيد فيه ، وهنا يدفن مع صاحبه ولا يبقى غير  
تذكاره ، فعاش الشرق بالفردي وعاش الغرب بالجماعة

لو ألهم سيف الدولة ان يقتصد قليلا من جوائز الشعراء فقط ، خل عنك  
سائر اسرافاته ، ويعمل فيها عملا يكمل أمره الى أبقاء الاجيال التي جاءت بعده ،  
لاثر وحده في مدينة الشام أكثر من تأثير الرومان واليونان ، ولما نسي اسمه  
« الا من دواوين الادب واسفار المحاضرات ومن قام أمره بالاستبداد ولم يحفل  
بآراء أصحاب الرأي تضيع سلطته عند أول عارض داخلي أو خارجي  
يعرض لها :

ان سيف الدولة مثل الاستبداد الممزوج بالعقل وحب الادب والشعر لأنه  
كان شاعراً مجيداً ، جيد الطبع ، كريم النفس ، وكانت فائدته الشخصية أقل من  
فائدة الآداب عامة على يده ، وجعل الشهباء مركز دائرته فأصبحت في سنين قليلة  
عاصمة الآداب فأورثنا شعراء سيف الدولة وأورثوه مجدًا لا يبلى على وجه  
الدهر جديده اه

## بين دمشق والقاهرة<sup>(١)</sup>

سادتي الاخوان

يعجز البيان عن توفية صداقتكم حقها ، ومقابلة عواطفكم الجميلة بمثلها ، فقد كسوتهم وطنيكم هذا حلة نقصر عنها قامته ، وظهر احساسكم الشريف في مظهر انساه ما لقيه من المشاق في سبيل الوصول الى حماكم ، فدمتم ودامت عوارفكم كهفاً يلجأ اليه في الملمات ، وعلم نور يستضاء به في الظلمات ، ولقد كنت بيت العزم منذ شهرين أن أزور مصركم في الشتاء المقبل لالتي من خلفتهم فيها من خالص الاصدقاء مصريين وعمانيين ، ولكن قضت الاقدار أن أهبط مصر في صيفها وأهلها يرحلون عنها على ان مصر حلوة في فصولها الاربعة لان السر في السكان لا في المكان كما كنت أود أن أشخص اليها من طريق البحر المطروق في ست وثلاثين ساعة موفورة لي أسباب الراحة لأن أوافيتها من طريق البر المهجور على مطية اقضى في السير والسرى من دمشق الى القاهرة أربعة عشر يوماً ، وألتي فيها من فقد الراحة ما يلقاه في العادة السفار في القفار

ان ما حملني على انتيابكم في هذه الحال تعرفونه باجمعكم وليس ببدع ان ينال مثله كل من يتصدى لطلب الاصلاح وينشد الحق والعدل في بلاد حكمت قرونا بالاستبداد ولم تكتب لها السلامة منه ، ومن ابتلى بذلك يستطيب الاذى اذا انتج عمله نفعاً للخير العام

قضيت في الشهر الفائت ثلاثة وعشرين يوماً في زيارة مدينة الرسول وآثار وادي موسى أو البتراء المعروفة بالعربية الصخرية وبلاد ما ب أي الكرك وأرض الشراة التي كان يسكنها بنو العباس في أيام بني مروان ومنها خرجوا بالدعوة لدولتهم وأرض البلقاء التي كانت مصايف لبني أمية أيام حكومتهم في دمشق وغير ذلك من الاقاليم في أقصى حدود بلاد الشام الجنوبية ومن هذه الاقاليم ما وصل اليه الخط الحجازي ومنها ما يقصد اليه على الدواب ، فلما عدت الى دمشق استريح

(١) وهي محاضرة القاها في نزل ادن بالاس (قصر عدن بالقاهرة) على جمهور من السوريين والعصريين

من وعساء السفر فاجأتني الحكومة المحامية بما عودتنيه أيام الحكم المطلق والحكم المقيد ، من خرق قانون الحرية الشخصية والفكرية ، ومحاولة النيل مني بالامواج سميت وطائفة من أصدقائي في سورية بعد انتشار القانون الاساسي ان يكون في بلادنا دستور حقيقي يستمتع به العثمانيون على اختلاف عناصرهم ونحلهم ، ولكن الفئة المتغلبة على الحكومة في الاستانة والمرسلة بصنائعها الى الولايات أبت وخصوصاً بعد سقوط وزارة رجل السياسة العثمانية كامل باشا الا ان يكون الدستور استبداداً في صورة حرية فكنا كلها طالبنا بمطلب من مطالب الاصلاح الطفيف أتهمونا أنواع التهم بل كنا معهم كما قال ابن أبي طالب « كراكب الصعبة ان أشنق لها خرم وان اسلس لها تقحم » فالحكومة بل الحاكم الذي كان يرهقنا زمن الاستبداد ويشردنا على اننا ناقون على حكومة الخلوع حتى اضطررنا ان انقضى أربع سنين في هذا القطر فراراً من الحيف عاد في الدور الذي يدعونه بالحرية يرمينا بالارتجاع ثم بالدعوة لانكسارهم بالدعوة لحكومة عربية الى غير ذلك مما يختلقون من ضروب الافتراء الذي لا يستنكف كل ضعيف في حكومة هذا الشرق التعس من أن يلصقه بمن لا يقدر على حججه بالبرهان اذا دل على عيوبه ليتقيها ونصح له بالاعتدال لتطول ايامه ولا تساوره اسقامه

ففي مثل هذه الحالة يسارع مثلي الى الهرب من وجه الظلم اذا لا قانون هناك يأخذ للضعيف من القوى وما القانون عندهم الا هوى النفوس ، ولا رواج الا للزور والنفاق ولا عجب فقد قال ابن خلدون ان الدول اذا تنزهت عن التعسف والميل والافن والسفسفة وسلكت النهج الامم ، ولم تجر عن قصد السبيل ، تفق في سوقها الابريز الخالص ، واللجين المصنفي ، وان ذهبت مع الاغراض والحقوق ، وماجت بسامسة البغي والباطل ، تفق البهرج والزائف

ولذا أرسلنا ساقينا للريج ساعة بلغنا ان الحكومة المحلية في سورية تريد القبض علينا على نحو ما قبضت على شقيقنا احمد المدير المسؤول لجريدة المقتبس فسرنا ( يوم ١٧ نيسان (ابريل) ١٩١٢ ) بدون ريث بين حدائق صالحية دمشق حتى بلغنا الراوية الغربية الشمالية منها في المكان المعروف بقبة السيار ، ومنها قصدنا الى دمر من طريق الجبل مشياً على القدم ثم انصرفنا من دمر الى المزة بالتصعيد

في الجبل أيضاً وهناك اختبأنا في إحدى قرى وادى العجم أياماً حتى تهيأت لنا أسباب الهزيمة على حصان في صحابة صديق لنا قديم رافقنا من أقصى حدود وادى العجم فررنا من طريق معوج اختزنا فيه أرض المزة وبلاس والأشرفيه وصحنايا والدرخبية والطيبة وشقحب ثم دير المدس والحارة من قرى أفليم الجيدور المعروف عند الأفرنج بايتورة حتى بلغنا النقرة من بلاد الجولان التي يسميها الفرنجة غولانيتيد فرقدنا بالقرب من نهر الرقاد وكنا هو منا في الليلة الفائتة على مقربة من نهر الأعوج المعروف في الكتب المقدسة باسم فرفر من عمل وادى العجم

وفي الجولان انصلنا بجماعة من تجار الأبل ذاهبين الى مصر فسايرناهم وقطعنا سهول الجولان ومراعيه وبقنا في الليلة الثالثة دون عقبة فيق ومن الغد هبطنا العقبة وهي لا تقل عن ساعتين وتعد من أعظم عقاب بلاد الشام ومنها يشرف المرء على أراضي الغور غور بيسان وبحيرة طبرية ونهر الشريعة أي الأردن وليس على هذا النهر العظيم سوى جسر قديم متداع وجسر بنات يعقوب فقطعنا الأول سباحة على الدواب ثم توقلنا الجبل الى موقع الدلايكة وهو واد بين جبليين متفرجين متآزبين من عمل طبرية عاصمة الأردن القديمة بل عاصمة الجليل أصبح أكثره ملكاً للصهيونيين من مهاجرة الاسرائيليين الاوربيين يستنبتونه ويستثمرونه على طريقهم المتعارفة في ديار الغرب حتى لقد تحس للحال بالفرق بين زراعة الوطنيين وزراعة المهاجرين فقريه بما ملكهم أرقى بزراعتها مرات من قرية كفر سبت وسكان هذه من مهاجرة الجزائر فبئنا تلك الليلة في سوق الخان بلد الصبيح على ساعتين من الناصرة وفي سفوح جبل الطور المشهور في التاريخ المسيحي

وفي اليوم الرابع اجتزنا غابة غيباء من شجر البطم فرأيناها آيلة للخراب كما تقول الآن غابات الشام كلها اللهم الا ما كان من غابات لبنان التي تزيد ولا تنقص وقطعنا هذه الحراج في ساعة ونصف حتى بلغنا قرية دبورية وفي منقطع أرض هذه الدسكرة بيتدىء مرج بن عامر أو سهل يزريع المذكور غير ما مرة في التوراة . قطعناه بالعرض في أربع ساعات حتى بلغنا قرية اللجون ومنها دخلنا في وادى عارة من عمل نابلس وطوله ثلاث ساعات وهو ضيق النطاق متوازي الاضلاع

حصب الرباع وفي آخره كان آخر عهدنا بجمبال الشام اذ لم نعد نرى بعده جبلا يذكر حتى بلغنا أرض مصر في جهات العريش وقطية فلمحنا عن بعد جبلا في الرمال يسمونه جبل الحلال وبتنا الليلة الخامسة في عيون الاساور على ساعتين من قيسارية (١) وهي قرية يسكنها مهاجرون من البوشناق وكانت من المدن الكبرى العامرة في القديم . وفي اليوم السادس اجتزنا قري بلاد نابلس مثل قاقون وقلنسوة والطيرة ومسكة حتى بلغنا نهر العوجاء على ساعة ونصف من يافا وعنده حططنا رحالنا وطريق هذا اليوم والذي قبله عامر بالحبوب ويكثر الزيتون في بلاد نابلس احدى أمهات مدن السامرة من كور فلسطين (٢) وتقل المياه حتى يضطر الاهلون أن يستقوا من أما كن بعيدة . وفي اليوم السابع اجتزنا بقري الساحل أمثال جبنة ، سدود ، مجدل ، بربرة ، بئر هديهد ، غزة وقضينا الليل في دير البلح وفي اليوم الثامن بدأ سيرنا في رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة وبمد أن سرنا ست ساعات دخلنا في رفح أول حدود مصر والشام وقد كانت تفتابني الهواجس تلك الليلة أحاذر أن أقع في يد عدو للحرية أو أن أجالس من يستدل بذكائه على انى لست من تجارة الابل في العير ولا في النفير أو لا ناقة لى في ذلك القطيع ولا جهل فما فتحت عيني قبيل الغسق الا وأنا أنشد بيت المتنبي

تديبر ذى حنك يفكر في غد وهجوم غر لا يخاف عواقبا  
فتفاعدت خيرا بالنجاة وان كنت لأحب التفاؤل ولا التشاؤم ولا أبني  
اعمالى على الاحلام والمرائى ، حتى اذا قيل لى ها أنت فى رفح تدوس تربة مصر  
قلت ما أحرأها أن تدعى فرحاً لا رخياً ليكون لكل شىء من اسمه نصيب ،  
ولا غرو فليس أحلى من النجاة على من كان يتوقع الخطر ، أو من الوصل على من  
طال به السهاد والسهر

(١) قيسارية بفتح أوله واسكان ثانيه بعد سين مهملة وألف وراء مهملة مكسورة ثم ياء اخت  
الواو مخففة غير مشدودة وهاء التأنيث من تغور الشام حاصرهما معاوية سبع سنين الا شهرا وفتحها  
وبعث بفتحها الى عمر فقام عمر رضي الله عنه فنادى الا ان قيسارية قد فتحت قسرا — قاله البكري  
في معجم ما استمعتم ( طبع المانيا ) ( ٢ ) في زهرة المشتاق للشريف الادريسي . اما حدود فلسطين  
وهي اول احواز الشام وحدودها مما يلي المغرب مقدار اربعة ايام وذلك من رفح الى اللاجون وعرضه  
من يافا الى ربحا مسيرة يومين وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وزغر الى بيسان والبرية تسمى الغور

ومن عجيب ما لاحظته في أراضى فلسطين انى شهدت لحكومتها بعض أثر من عمل مثل انشائها بعض الجسور على الاودية في حين لم أر عملاً عمراً نياً في ولايتى سورية وبيروت كأن مجاورة لواء القدس للاراضى المصرية عدت فلسطين أو القسم الاعظم منها من ارتقاء بلاد الفراعنة فصحت عزيمة حكومة القدس على ان تمد جسوراً على الاقل وتعيد الطرق بعض الشىء لا جرم ان العلى تمدى كما قال أبو تمام ، ولقد كنا كلما اقتربنا من غزة نحس بتغير المشاهد في بلاد أشبه بهوائها وزراعتها بالبلاد المصرية والناس يكادون يشبهون سكان الصعيد بالبستهم ولهجاتهم وهذا من عدوى الجوار وكثرة اختلاط المتجاورين من سكان القطرين فانك كما ترى جمهوراً كبيراً من جالية المصريين في يافا وغزة هكذا تجد الحمير والموز من أشجار البلاد الحارة شائمين في صقع غزة

دخلنا اليوم التاسع في رمال ولم يكن يتغير شكلها خمسة أيام متوالية الى أن قالت الامعاءيلية ها أنا ذه . وهذه الرمال كانت تعرف قديماً بالجفار جمع جفر وهى البئر القريبة القعر الواسعة لم تطو قال ياقوت وهى أرض من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشبى متصلة برمال تيه بنى اسرائيل والخشبى بينه وبين القسواط ثلاث مراحل كما فى معجم البلدان فيه خان وهو أول الجفار من ناحية مصر وآخرها من ناحية الشام قال أبو العز مطهر بن ابراهيم بن جماعة بن على الضرير العيلانى معتذراً عن تأخره لتلقى الوزير الصاحب صفى الدين بن شكر وكان قد تلقى الى هذا الموضع

قالوا الى الخشبى سرنا على لطف      تلقى الوزير جموعاً من ذوى الرتب  
ولم تسر قلت والمولى ونعمته      ما خفت من تعب ألقى ولا نصب  
وانما النار فى قلبى لغيبته      خفت أجمع بين النار والخشب  
وكل الجفار رمال سائلة بيض فى غربتها منعطف نحو الشمال بحر الشام وفى  
شرقها منعطف نحو الجنوب بحر القازم وسميت الجفار لكثرة الجفار بارضها ولا  
شرب لسكانها الا منها وكان فيها لعهد ياقوب بنخل كثير ورطب جيد وهو ملك القوم  
متفرقين فى قرى مصر يأتونه أيام لقاحه فيلقحونه وأيام ادراكه فيجنونونه وينزلون  
بينه باهاليهم فى بيوت من سعف النخل والحلفاء ، وفى الجادة السابلة الى مصر

عدة مواضع عامرة يسكنها قوم من السوقة للمعيشة على القوافل ، وهي رفح والقس والزعقا والعريش والورادة وقطية وفي كل موضع من هذه المواضع عدة دكاكين<sup>(١)</sup> قال المهلبى واعيان مدن الجفار العريش ورفح والورادة والنخل في جميع الجفار كثير وكذلك الكروم وشجر الرمان ( اما نحن فلم نر كرمًا ولا رمانًا ولا دكانًا ولا خانًا ) وأهلها بادية متحضرين ولجميعهم في ظواهر مدنهم أجنحة واملاك واخصاص فيها منهم كثير ويزرعون في الرمل زرعاً ضئيلاً يؤدون فيه العشر وكذلك يؤخذ من ثمارهم ، ويقطع في وقت من السنة الى بلدهم من بحر الروم طير من السلوى يسمونه المرغ ( والمرغ هو الطير بالفارسية ) يصيدون فيه ما شاء الله يأكلونه طرياً ويقتنونه مملوحاً ويقطع أيضاً اليهم من بلد الروم على البحر في وقت من السنة جارح كثير فيصيدون منه الشواهين والصقور والبواشق وقل ما يتقدرون على البازي وليس لصقورهم وشواهينهم من الفراشة ما لبواشقتهم وليس يحتاجون لكثرة أجنحتهم الى الحراس لانه لا يقدر أحد منهم يعدو على أحد لان الرجل منهم اذا أنكر شيئاً من حال جنانه نظر الى الوطاء في الرمل ثم قفا ذلك الى مسيرة يوم ويومين حتى يلحق من سرقة ، وذكر بعضهم انهم يعرفون اسر وطاء الشاب من الشيخ والابيض من الاسود ، والمرأة من الرجل والعائق من الثيب فان كان هذا حقاً فهو من أعجب العجائب

قلت وبعض ما قاله هذا المؤرخ من الاستدلال بالاقدام على الاشخاص صحيح والوطء يبقى أثره في الرمل ايما وليس من الصعب أن يتأثر المرء هنا من استباح جنته فانه اذا علا نشزا من هذه الرمال وهي عبارة عن تلععات ومنعرجات ومنعرجات وأحاديث لا يلبث أن يشاهد السائر من مسيرة ساعات . وفي اليوم العاشر اجتزنا بالعريش وهو من البحر الابيض على نصف ساعة فالمسعوديات على الساحل وفي الحادي عشر نمنا بالمزار وفي الثاني عشر بالجنادل وفي الثالث عشر بابي العنين وفي الرابع عشر مررنا بالقطية وبتنا بعراض ء وفي الخامس عشر بلغنا الاسماعيلية فالقاهرة .

(١) قال المقدسى فاما الجفار فقصبتهما الفرما ومدنها البقارة والورادة العريش وأما الحوف فقصبتهما بابيس ومن مدنها مشلول جرجير فاقوس غيفا دبتوقونة برجم القازم

هذا هو الطريق الذي كان يطرقه المصريون والشاميون منذ عرف التاريخ وكثيراً ما كان بعضهم يؤثرونه على ركوب المراكب والسفن الشراعية لما كان فيها من الاخطار أيام لم يكن البخار ، يسير مراكب البحار . قطعناه في أربعة عشر يوماً وكان أجدادنا يقطعونه في أربعة أيام على خيل البريد ، ومن هذا الطريق سار عمرو بن العاص سنة ١٩ للهجرة لفتح مصر فنزل العريش ثم أتى الفرما وبها على رواية البلاذري قوم مستعدون للقتال فحاربهم فهزمهم وحوى عسكرهم ومضى الى القسطنطينية ، والفرمي أو الفرما كان حصناً على الضفة البحرية يحمل اليه ماء النيل في المراكب من تنيس ويحزن أهله ماء المطر في الجباب ، وكان بعض أهلها قبطاً وبعضهم من العرب وقد ورد ذكرها كثيراً في شعر أهل القرون الاولى وفي الفرما أرق الخليفة المأمون رضى الله عنه لما سار الى مصر فبات فيها وقد ذكر بغداد ونعيمها وقصورها فقال

لليلاك كان بالميدان ان اقصر منه بالفرما

غريب في قري مصر يعانى الهم والسدما

والميدان من أحياء دار السلام والسدم الهم مع الندم والحزن ذكر المقرئ ان الدرب الذي يسلك فيه الى مصر في القرن التاسع للهجرة لم يحدث الا بعد الخمسمائة من سني الهجرة عند ما انقضت الدولة الفاطمية . وفي المسالك والممالك أن الطريق من دمشق الى الكسوة اثنا عشر ميلاً ( كذا والميل بحسب اصطلاحهم ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي والذراع أربعة وعشرون أصبغاً والأصبغ أربع شعيرات ظهر واحدة الى ظهر الأخرى والشعيرة أربع شعيرات من ذنب بغل ) ثم الى جاسم بلد أبي تمام الطائي أربعة وعشرون ميلاً ثم الى فيق أربعة وعشرون ميلاً ثم الى طبرية مدينة الاردن ستة أميال ومن طبرية الى اللجون عشرون ميلاً ثم الى القلنسوة عشرون ميلاً ثم الى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلاً والطريق من الرملة الى أزدود ( ؟ ) اثنا عشر ميلاً ثم الى غزة عشرون ميلاً ثم الى العريش أربعة وعشرون ميلاً في رمل ثم الى الواردة ثمانية عشر ميلاً ثم الى أم العرب عشرون ميلاً ثم الى الفرما أربعة وعشرون ميلاً ثم الى جرير ثلاثون ميلاً ثم الى القاصرة أربعة وعشرون ميلاً ثم الى مسجد قضاء ثمانية عشر ميلاً ثم الى بلبيس

أحد وعشرون ميلاً ثم إلى القسطنطينية مدينة مصر أربعة وعشرون ميلاً فهذه ثلثمائة وخمسة وستون ميلاً تبلغ نحو سبعمائة كيلو متر

وكان الدرب المسلوك من مصر إلى دمشق من بلبس إلى الفرما في البلاد التي كانت تعرف ببلاد السباخ من الجوف ويسلك من الفرما إلى أم العرب وهي بلاد خراب على البحر فيما بين قطية والواردة فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية في سنة تسعين وأربعمائة أغار بغدوين صاحب الشوبك على العريش وهو يومئذ حاصر بطل السفر حينئذ من مصر إلى الشام وصار يسلك على طريق البر مع العرب مخافة الفرنج إلى أن استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من أيدي الفرنج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فصار يسلك هذا الدرب على الرمل إلى أن ولي ملك مصر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل فأنشأ مدينة الصالحية في سنة أربع وأربعين وستمائة فلما ملك الظاهر بيبرس البندقداري رتب البريد في الطرقات حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق في أربعة أيام ويعود في مثلها فصارت أخبار الممالك ترد إليه في كل جمعة مرتين ويتحكم في ممالكه بالعزل والولاية وهو مقيم بالقلعة وانفق في ذلك مالا عظيماً حتى تم ترتيبه وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة

وما زال أمر البريد مستمراً فيما بين القاهرة ودمشق يوجد بكل مركز من مراكزه عدة من الخيل المعدة للركوب وتعرف بخيل البريد وعندها عدة سواس وللخيل رجال يعرفون بالسواقين واحدهم سواق يركب مع من رسم بركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره ولا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطاني وتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهامه وتارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطاني قال صاحب الخطط وكانت طريق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماء فلما أخذ تيمورلنك دمشق وسبي أهلها وحرقت في سنة ثلاث وثمانمائة خربت مراكز البريد واشتغل أهل الدولة بما

نزل بالبلاد من المحن عن اقامة البريد فاختل بانتقاعه طريق الشام خلافا فاحشا  
قالوا والبريد خيل تشتري بمال السلطان ويقال لها السواس والعلوفات وهي  
مقررة علي عربان ذوى اقطاعات عليها خيول موظفة تحضر في هلال كل شهر الى  
كل مركز أصحاب النوبة باخيل فاذا انسلخ الشهر جاء غيرهم وهم لهذا يسمون خيل  
الشهارة وعلى الشهارة وال من قبل السلطان يستعرض في رأس كل شهر خيل  
أصحاب النوبة فيه ويدوغها بالداغ السلطاني ، وقد أنشأ أمراء مصر وماوكها  
مثل كريم الدين وكيل الخصاص الناصري والملك الاشرف خليل ونغر الدين كاتب  
الماليك وناصر الدين الدوادار التنكزي وطاجار الدوادار وكافل الشام الطنبغا  
والظاهر بيبرس البندقداري وغيرهم خانات ورباطات وفنادق ومساجد وآباراً  
ودساكر لأبناء السبيل وكان الطريق في بعض الادوار يتحول قليلا من أول  
الكورة الى آخرها ولكنه لم يخرج قط في كونه من مصر من الغرب الى الشرق  
ثم يعرج في بلاد الشام نحو الشمال قليلا حتى دمشق

وكان حمام الزاجل الذي هو بمثابة تلغراف أجدادنا يسير من القاهرة الى  
بلبيس ومنها الى الصالحية ومن الصالحية الى قطية ومن قطية الى الواردة ومن  
لواردة الى غزة ومن غزة الى القدس ومن غزة الى نابلس ومن غزة الى لد ومن  
لد الى قاقون ومن قاقون الى جينين ومن جينين الى صفد ومن جينين الى بيسان  
ومن بيسان الى اربد ومن اربد الى طفس ومن طفس الى الصنمين ومن الصنمين  
الى دمشق

وكان الثلج ينقل على الهجين من بلاد الشام الى حضرة السلطان بقلعة الجبل  
بالقاهرة وقد جاء زمن وهو لا يحمل الا في البحر خاصة - كما جاء في التعريف  
بالمصلح الشريف - ومن الثغور الشامية بيروت وصيدا ويفرض على البقاع  
وبعلبك ارفادها في ذلك وكان يسيرا فكثروا وقرر منه على طرابلس مما استقر على  
جبة بشرى والمنيطرة من عمل لبنان اليوم . والمركب تأتي دمياط في البحر ثم  
يخرج الثلج الى الشرايخانات الشريفة ويخزن في صهريج أعد له وأصبح في القرن  
الثامن يحمل في البر والبحر ومدة ترتيب حملة من حزيران ( يونيو ) الى آخر  
تشرين الثاني ( نوفمبر ) وعدة نقلاته في البر ٧١ نقلة متقاربة مدتها بينها . وقد

صار يزيد على ذلك ويجهز بكل نقلة بريدى يتداركه ويجهز معه ثلاث خبير بحمله ومداراته يحمل على فرس بريد ثان ، والمرصد فى كل نقلة خمسة أجمال والمستقر فى كل مركز له ستة هجن خمسة للحمل وواحد للهجان قال العمري : ولا يصل الشالج متوفراً الا اذا أخذ الشالج المجلد وأجيد كبسه واحترز عليه من الهواء فانه أسرع اذابة له من الماء وكذلك كانت المناور مواضع رفع النار فى الليل والدخان فى النهار للاعلام بحركات العدو وقد أرصد فى كل منور الدياب والنظار قرؤية ما وراءهم رايراء امامهم وهى من أقصى ثغور الاسلام الى حضرة السلطان بقامة الجبل حتى ان المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم بها عشاء . وهذه المناور بدخانها ونيرانها أشبه بالهليوستاوالابجكتيف لهدنا

هكذا كان طريق مصر الى القرن التاسع للهجرة وهذا أقصى ما بلغته مدينة القوم فى أسباب النقل والراحة وينزل اليوم فى هذه النفود أى الرمال المترامية كما يسميها العرب أناس من عرب مصر يرجعون فى أصولهم الى بطون وأنخاذ معروفة عندهم تعرفهم بسميهم ضئال الاجسام صفر الوجوه على نحو ما وصفهم واصفوههم فى القرون الوسطى وهم شايوة يقومون على تربية الشاء ولهم جمال قليلة وزروعهم فى الأكثر الشعير فى الشتاء والبطيخ فى الصيف ولهم نخيل قليل فى بعض واحاتهم وبالقرب من سبخاتهم ولا حجر فى ديارهم يبنون به بيوتهم ، ومساكنهم حقيرة يصنعونها من الخوص فلاهم بادية يأوون الى الخيام ولاهم حضر كالعرب النازلين منذ القديم فى ريف مصر كالقيوم والشرقية وغيرها من مديريات القطر مثلاً ولهجاتهم أقرب الى لهجة سكان جنوبى الشام منها الى اللهجة المصرية ومن فلسطين يكتالون ، وفي فلسطين يقضون شطراً من السنة فى رعى أغنامهم وماعزهم ولم تعمل الحكومة المصرية شيئاً لارتقائهم سوى انها نشرت اعلام الأمن على ربوعهم ، ولذلك ترى تجار الابل يأتون بها من بلاد نجد والجزيرة والشام ولا يزالون يحاذرون اعتداء السراق عليها حتى يبلغوا رفح وعندها يوقنون بانه لا يضيع لهم فى تلك البادية عقاب بعير وكان عرب هذه النفود من قبل مثلاً سائراً فى الاعتداء على السابلة وهم اليوم معفون من الضرائب والخدمة العسكرية وغريب كيف لا يناههم قسط من مدينة مصر فرموها كحرموا

الاستمتاع بماء النيل العذب وتربة واديه الممرعة

\*\*\*

هذه النفود هي الحد الطبيعي بين مصر والشام بل الحد الصناعي الذي اصطلحت عليه مؤخراً الحكومتان المصرية والعثمانية في رفح والعقبة بل الحد الفاصل بين قارتي آسيا وافريقية لم يحل في كل الازمان دون اختلاط أهل هذين القطرين الشقيقتين ومن قرأ تواريخ الجبرتي وابن اياس والسخاوي وابن حجر والغزى وغيرهم يدرك ان هجرة السورى الى مصر ترد الى مئات من السنين ومن بحث في أنساب من تولوا أعمال الحكومة المصرية وشاركوا مصر في سعودها ونحوسها من العلماء والتجار والصناع يجد فيهم كثيراً من الشاميين وكذلك الحال في المصريين ببلاد الشام فلا عجب اذا كان حظ مصر والشام واحداً في السراء والضراء ، وعلاقتها الاقتصادية موفورة مستحكمة ، وليس اعلق بالقلوب من الصلات المالية . وانا لرى الشام أمس واليوم وغداً تتأثر لاقل أزمة مالية في مصر كما ان هذه تتأذى من العوارض السماوية أو الارضية كلما اجتاحت الشام ، فمصر والشام هما قطران بالاسم ولكنهما بالفعل قطر واحد جرى الاصطلاح على تسمية كل منهما باسم وكل منهما متمم لصاحبه حتى لقد سئل أحد عمال الدولة العثمانية في القرن الماضى عن رأيه في القطرين فقال مصر مزرعة حسنة والشام مصيف جميل

واذ قد عرفنا ان أجدادنا أحسنوا الانتفاع من مجاورة القطرين العزيزين ساع لنا ان نطالب في هذا العهد بزيادة أواخى الاخاء بينهما من طريق البر على نحو ما هي عليه من طريق البحر فيسمى العقلاء من الممالين الى نيل امتياز يربط عاصمة الشام بعاصمة مصر بخط حديدي عريض حتى يأتى الراكب في أربع عشرة ساعة بدلا من أربعة عشر يوماً واذا أحب القائمون بالامر الا اكتفاء بوصول السكة الجديدة مع أقرب الطرق الى مصر فما عليهم الا ان يكتفوا الآن بايصاله الى القدس وهذه ستتصل هذا العام بخط حيفا مبدئ السكة الحجازية من محطة العفولة والمسافة بينهما لا تقل عن مئة كيلومتر تمد على نفقة ادارة الخط الحجازي ، ومعلوم ان حيفا مرتبطة بدرعا ودمشق وعندها يسهل على ابن مصر الاصطيفان في جبال

الشام وتبعث هذه بحبوبها وثمارها وترسل مصر الى الشام بشيء من مدنيها وعلومها وانتظامها ويخلص كل من يريد أن يخلص الى مصر من هذه الرمال الموحشة المرعشة والمفازة المدهشة المعطشة التي تموز منها كل من اجتازها وقاسى الامرين من مائها البشع المر المهوع المتروح ولولا انى تسليت عن المأكل والمشرب فى الايام الخمسة التى قضيتها فى اجتياز هذه المفاوز بما سمعته من أحاديث رفاقى العرب فى الابل حتى صرت كأنى بعض رعائها لطال على أمرها ولكنى حملت النفس على ان تتعلم الصبر من تلك الجمال وطبقت فيها بالعمل ما قرأته بالنظر أيام الطلب من مصطلحات العرب فى ابلهم وحدائهم فصار مذهبي ولا نخر جماليا بعد ان كان جماليا ، وعلمى بالاباعر عملياً وكان من قبل نظريا

وكان رحلتى فى الشهر الماضى الى الحجاز وجنوبى الشام ونزولى على أهل البادية من أهل المدر والوبر كانت مقدمة لما امتحنت به هذا الشهر من مواكبة الاعراب فى صحفة واحدة والتخلى عن الملعقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس، والاكل من أطعمتهم وهى الثمن أرز العراق والبرغل جريش الخنطة والتمر والخبز المعمول بالملة أو على الصاج يسجر ببعر الاباعر، والادام فى هذه الايام يخالطه رمل وهذا يدخل فى كل مأكول ومشروب تسفوه الرياح طوعاً أو كرهاً ولقد صدق الواصفون منذ القديم لهذه الجفار بان « الخبز اذا أكل يوجد الرمل فى مضغه فلا يكاد يبالغ فيه »

وانى أحمد الله اليكم على انى قضيت أيام هذه الرحلة ولياليها برمتها لم أطالع فيها جريدة ولا مجلة ولا كتاباً ولا وقعت عينى على ورقة ، ولا مسكت قلماً ولا كتبت محاضرة ولا مقالة ولا نكتة ولا قيدت شاردة ولم أسمع غير حذاء الابل وغناء الاعراب ولم يصل فكبرى الى أبعد من عمل القهوة البدوية وأكل التمر ولم يبلغ أذنى غير أحاديث الابل فاصبحت ولله المنة استعذب ترداها استعذابى لترديد أخبار المدينه . ومن نعم المولى على انى رأيت صورة مصغرة من عيش أهل جزيرة العرب تمشى بين بلاد الشام ومصر ، ودرست نموذجاً صالحاً من أخلاق العرب بالاختلاط بتجار الجمال ورعاتها ممن كانوا يختلفون الينا ونختلف اليهم كل مساء وصباح فلم أسمع كلمة هجر وبذاء وتجديف قط ، وما تبينت فى أخلاقهم الا

الجد الذي ليس وراءه جد ، والعزيمة التي تخور أمامها العزائم ، والبحث على الدوام فيما هم بسبيله من التجارة والعناية برعية ابلهم والقيام على صحتها فكان وجود السبط والارطة والقطف والحط من العريش الى قطية فالاسماعيلية وغير ذلك من الاشواك والاعشاب كالشيخ والرم التي تستطيعها انعامهم أهم لديهم من كل حديث ، واشهى لقلوبهم من كل نعمة ، وافعل في نفوسهم من كل نعمة من نعم الجمال والكمال

قضيت ويا لسعادتي أسبوعين كاملين في عالم الابعار والبحران ، والابل والحوار والبطين والبطنان والكثيب والكثبان وشين وزين وترد وتصدر وندلج ونسرى ونشد ونمخ ونضحي ونعشى وغير ذلك من فصيح العربية الباقية على أسلات ألسن أولئك العرب الاميين ولو أردت أن استوفى ما سمعته من هذا القبيل لاستغرق مجلداً برأسه وما أحلى ما سمعته من أحدهم وهو يقول لصاحبه يافلان خذ من فلان كذا جنيهاً وأنت الفالج أى الراجح من الفالج وهو الظفر وكيف لا أؤخذ بما وعيت ورأيت وأنا طول هذه الفترة لم أسمع نعيمة ولا غيبة ولا شهدت كذباً ولا منكراً وكان أولئك الاعراب باجمعهم مواظبين على صلواتهم بدون تكلف يتيممون يوم يقل مأوهم ، ولا يسرفون فيه اذا وجد . أخلاق طاهرة متينة ما كنت أظنها باقية في البادية وأرجو أن لا تفقد بتاتاً من أهل الحضر ولو تهيأ سكان اليمن ونجد خاصة شيء من المدنية الصحيحة لفاقوا ولا جرم الانكسار السكسونيين باخلاقهم وأنانيهم ورويتهم ، واني لما خبرت القوم أيقنت بفساد القضية التي وضعها أحد الباحثين في أصول الشعوب من أن الطيش والرعونة والفسق تغلب على سكان البلاد الحارة ومع ان بلاد هؤلاء الاعراب من الاقاليم الحارة جعلت منهم التربية الدينية المعتدلة أهل اعتدال ورجال مال وأعمال هذا وقد أطلت حواركم حتى خفت عليكم التبرم بحديثي واني حامد شاكر لكل ما تم على لا يقاني يان الحوادث أكبر معلم ولولا الحادثة الاخيرة في دمشق لما تيسر أن أبلغ مصر من شرقها وان أستمتع بلقياكم الآن وأرجو أن يدوم لي هذا الاستمتاع ولكن على شرط أن يقيض الله للبلاد العثمانية من يغار على مصالحها وينقذها من سقطتها . واسأل قاهر الجبابرة والاسلاطين أن يمن علينا بنعمة الراحة أجمعين

## مدن العرب<sup>(١)</sup>

يظن بعض الجاهلين أو المتجاهلين لحسنات المدنية الاسلامية أن العرب إبان عزهم لم يأتوا شيئاً يذكر في أعمال العمران ، وان قصاراهم ان تلقفوا بعض المدنية الفارسية واليونانية وتمتعوا بها بضعة قرون ثم نقلوها الى من بعدهم من أمم المدنية الحديثة في الغرب . ويقول بعضهم انهم كانوا في فن البناء دون الرومان ، وان قصورهم الباقية لا تشهد بتفنن عجيب في الهندسة على ان الباقي من آثارهم الى اليوم في الاندلس ومصر والشام والعراق وفارس والهند شاهد ابد الدهر بابطال دعوى المدعين وما يحيك في صدورهم من الاهواء

ولقد رأينا بعضهم يتوكأون في الحظ من اقدار العرب في العمران على الفصل الذي عقده ابن خلدون في مقدمته في « ان العرب اذا تغلبوا على الاوطان أسرع اليها الخراب » الذي قال في آخره : « وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمرانها واقفر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض فاليمن قرارهم خراب الا قليلا من الامصار ، وعمران العرب كذلك قد خرب عمرانها الذي كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك ، وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها ، بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتمائيل البناء وشواهد القرى والمداشر »

هذا ما يحتجون به ولو عاموا ان مقصد ابن خلدون بالعرب هنا البدو أو البادية أو العربان الرحل كما نسميهم لعهدنا لارتفع كل اشكال والافان المدن التي مدنها العرب أيام عزهم ، والامصار التي مصروها ، والقرى التي عمروها ، لا تدخل تحت حصر في كل قطر دخلوه ولو أياماً مما لم يتيسر لغيرهم من الامم كالترك مثلاً الذين حكموا الاقطار الواسعة العامرة بطبيعتها ستمائة سنة ولا تكاد تعرف لهم

(١) نشرت في المجلد السابع من مجلة المقتبس

مدينة أسسوها ، ولا موأناً أخصبوه ، ولا ماء أسالوه ، وشغلهم الشاغل حروب  
وغزوات . هكذا مضوا أيام القوة وهكذا الحال زمن الضعف .

ومن قرأ كتب وصف البلاد تجلى له مقدار عناية العرب ببناء مدنهم ، خذ  
لك على سبيل المثال ما رواه الاقدمون في كيفية بناء سامرا أو سر من رأى  
احدى المدن العباسية التي أنشئت على دجلة على مسافة ثلاثين فرسخاً من بغداد  
فقد قالوا ان السفاح أراد أن يبنى سامرا فبنى مدينة الانبار بجذائها وأراد المنصور  
بعد ما أسس بغداد بنائها فابتدأ بالبناء في البردان ثم بدا له وبنى بغداد وأراد  
الرشيد أيضاً بنائها فبنى بجذائها قصرأ وهو بازاء أثر عظيم قديم كان للاكاسرة  
ثم بناها المعتصم ونزلها في سنة ٢٢١ وكان الرشيد حفر نهرأ عندها سماه القاطول  
وأتى الجند وبنى عنده قصرأ ثم بنى المعتصم أيضاً هناك قصرأ ووهبه لمولاه  
اشناس فلما ضاقت بغداد عن عساكره وأراد استحداث مدينة كان هذا الموضع  
على خاطره فجاءه وبنى عنده سر من رأى ، بنى دارأ وأمر عساكره بمثل ذلك فعمر  
الناس حول قصره حتى صارت أعظم بلاد الله وبنى بها مسجداً جامعاً في طرف  
الاسواق وانزل اشناس بمن ضم اليه من القواد كرخ سامرا . وهو كرخ فيروز  
وأقام ابنه الواثق بسامرا حتى مات بها ثم ولي المتوكل فاقام بالهاروني وبنى به  
أبنية كثيرة واقطع الناس في ظهر سر من رأى في الحيز الذي كان احتجره المعتصم ،  
واتسع الناس بذلك وبنى مسجداً جامعاً فاعظم النفقة عليه وأمر برفع منارة لتعلو  
أصوات المؤذنين فيها وحتى ينظر اليها من فراسخ فجمعوا الناس فيه وتركوا  
المسجد الاول واشتق من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان  
شوارع سامرا واشتق نهرأ آخر وقدره للدخول الى الحيز فمات قبل أن يتم  
وحاول المنتصر تميمه فلقصر أيامه لم يتم ثم اختلف الامر بعده فبطل وكان  
المتوكل انفق عليه سبعمائة الف دينار

ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل  
فمن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم والقصر  
المختار خمسة آلاف ألف درهم والوحيد ألفى ألف درهم والجعفرى المحدث عشرة  
آلاف ألف درهم والغريب عشرة آلاف ألف درهم والشيدان عشرة آلاف ألف

درهم واليرج عشرة آلاف ألف درهم والصبح خمسة آلاف ألف درهم والمليح  
خمس آلاف ألف درهم وقصر بستان الألتاخية عشرة آلاف ألف درهم والتل  
علوه وسفله خمسة آلاف ألف درهم والجوسق في ميدان الصخر خمسمائة ألف  
درهم والمسجد الجامع خمس عشر ألف ألف درهم وبركوان للمعز عشرين ألف  
ألف درهم والقلائد خمسين ألف دينار وجعل فيها أبنية يمانية الف دينار والغرد  
في دجلة ألف ألف درهم والقصر بالمتوكلية وهو الذي يقال له الماحوزة خمسين  
ألف ألف درهم والبهو خمسة وعشرين ألف ألف درهم واللؤلؤة خمسة آلاف  
ألف درهم فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف ألف درهم  
وكان المعتصم والوائق والمتوكل اذا بنى أحدهم قصرأ أو غيره أمر الشعراء  
أن يعملوا فيه شعراً فمن ذلك قول علي بن الجهم في الجعفرى الذى للمتوكل :

وما زلت أسمع أن الملو ك تبنى على قدر أقدارها  
وأعلم أن عقول الرجا ل تقضى عليها بآثارها  
فلما رأينا بناء الاما م رأينا الخلافة في دارها  
بدائع لم ترها فارس ولا الروم في طول اعمارها  
والروم ما شيد الا ولون وللفرس آثار أحرارها  
وكنا نجس لها نخوة فطامنن نخوة جبارها  
وأنشأت تحتج للمسلمين على ملحدتها وكفارها  
صحون تسافر فيها العيون اذا ما تجلت لأبصارها  
وقبة ملك كأن النجو م تضىء اليها بأسرارها  
نظمننا الفسافس نظم الحلى لعون النساء وأبكارها  
لوان سليمان أدت له شياطينه بعض أخبارها  
لأيقن أن بنى هاشم تقدمها فضل أخطارها

وقال الحسين بن الضحاك:

سر من را أسر من بغداد فاله عن بعض ذكرها المعتاد  
حبذا مسرح لها ليس يخلو أبداً من طريدة وطراد  
ورياض كأنما نشر الزه ر عليها محبر الأبراد

واذكر المشرف المظل من الت  
ل على الصادرين والوراد  
واذا روح الرعاء فلا تن  
س رواعى فراقدا الأ ولاد  
وله فيها وبفضلها على بغداد :  
على سر من راء المصيف تحية  
مجلة من مفرم به - واهما  
ألا هل لمشتاق ببغداد رجعة  
تقرب من ظليهما وذراهما  
محلان لقي الله خير عباده  
عزيمة رشد فيهما فاصطفاها  
وقولا لبغداد اذ ما تنسمت  
على أهل بغداد جعلت فداها  
أفى كل يوم شف عيني بالقدا  
حرورك حتى رابنى ناظراها

قال ياقوت ولم تزل كل يوم سر من رأى فى صلاح وزيادة وعمارة منذ أيام  
المعتصم والواثق الى آخر أيام المنتصر بن المتوكل فلما ولى المستعين وقويت شوكة  
الأتراك واستبدوا بالملك والتولية والعزل وانفسدت دولة بنى العباس لم تزل سر  
من رأى فى تناقص للاختلاف الواقع فى الدولة بسبب العصبية التى كانت بيد  
أمراء الأتراك الى أن كان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر  
من رأى بالكلية المعتضد بالله أمير المؤمنين كما ذكرناه فى التاج وخربت حتى لم  
يبق منها إلا موضع المشهد الذى تزعم الشيعة أن به سرداب القائم المهدي ومحلة  
أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامرا وسائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر  
اليها بعد ان لم يكن فى الارض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس  
ولا أوسع ملكا منها فسبحان من لا يزول ولا يحول

وذكر الحسن بن احمد المهابي فى كتابه المسمى بالعريزى قال وأنا اجتزت بسر  
من رأى منذ صلاة الصبح فى شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور كأن اليد  
رفعت عنها للوقت لم تعدم الا الابواب والسقوف فاما حيطانها فكالجدد فما  
زلنا نسير الى بعد الظهر حتى انتهينا الى العمارة فيها وهى مقدار قرية يسيرة فى  
وسطها ثم سرنا الى الغد على مثل تلك الحال فما خرجنا من آثار البناء الى نحو  
الظهر ولا شك أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ

وكان ابن المعتز مجتازاً بسامرا متأسفاً عليها وله كلام منشور ومنظوم فى  
وصفها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أتقاضها الى بغداد ويعمر بها

فقال ابن المعتز :

قد أقفرت سر من رأى وما لشيء دوام  
فالنقض يحمل منها كأنها آجام  
ماتت كما مات فيل تسل منه العظام

وكتب على وجه حائط من حيطان سامرا الخراب :

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائف آبائي على الأئم  
فكل ما فيه مبدول لطارقه ولا ذمام به الا على الحرم

وكتب عبد الله بن المعتز الى بعض اخوانه يصف سر من رأى ويذكر خرابها  
ويذم بغداد وأهلها ويفضل سامرا : كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها  
وأقعد جدرانها فشاهد اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر فكان عمرانها  
يطوى وكان خرابها ينشر وقد وكت الى المهجر نواحيها واستحث باقيها الى  
فانيها وقد تمزقت بأهلها الديار فما يجب فيها حق جوار فالظاعن منها ممحو الاثر  
والمقيم بها على طرف سقر نهاره ارجاف وسروره أحلام ليس له زاد فيرحل  
ولا مرعى فيرتع خالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم الدنيا بعد ما كانت  
بالمرأى القريب جنة الارض وقرارة الملك تفيض بالجنود أقطارها عليهم أودية  
السيوف وغلائل الحديد كأن رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول من  
خيل تأكل الارض بجوافرها . وتمد بالنقع سائرها . قد نشرت في وجوهها  
غرراً كأنها صحائف البرق وأمسكها تحجيل كأسورة اللجين ونوطت عنذراً  
كالشئوف في جيش يتلقف الاعداء أوائله ولم ينهض أواخره وقد صب عليه وقار  
الصبر وهبت له روائح النصر يصرفه ملك يملأ العين جمالا والقلوب جلالا لا  
تخلف مخيلته ولا تنقض هيرته ولا يخطيء بسهم الرأى غرض الصواب ولا يقطع  
بمطايا اللهو سفر الشباب قابضاً بيد السياسة على قطار ملك لا ينتشر حبله ولا  
يتشظى عصاه ولا تطفأ جمرته في سن شباب لم يحن مأتماً وشيب لم يراهق هرمًا  
قد فرش مهاده وخفض جناح رحمته راجماً بالعواقب الظنون لا يطيش عن  
قلب فاضل الحرم بعد العزم شاعياً على الحق يعمل به عارفاً بالله يقصد اليه مقراً  
للحلم ويبذله قادراً على العقاب ويعدل فيه اذ الناس في دهر غافل قد اطأنت بهم

سيرة لينة الحواشي خشنة المرام تطير بها أجنحة السرور ويهب فيها نسيم الحبور  
فالاطراف على مسرة والنظر الى مبرة قبل أن تحث مطايا الغير وتسفر وجوه الخذر  
وما زال الدهر ملياً بالنوائب طارقاً بالمعائب يؤمن بومه ويفدر غده على انها  
وان جفت معشوقة السكنى وحبيبة المئوى كوكبها يقظان وجوها عريان وحصاها  
جوهر ونسيمها معطر وتراها مسك أذفر ويومها غداة وليلها سحر وطعامها هنيء  
وشربها صرىء وتاجرها مالك وفقيرها فاتك لا كبغداد كم الوسخة الومدة الهواء  
جوها نار وأرضها خبار وماؤها حميم وتراها سرجين وحيطانها نزوز وتشريتها  
تموز فككم من شمسها من محترق وفي ظلها من غرق ضيقة الدار قاسية الجوار ساطعة  
الدخان قليلة الضيفان أهلها ذئاب وكلامهم سباب وسائلهم محروم وما لهم مكتوم  
لا يجوز انفاقه ولا يحل خناقه حشوشهم مسابل وطرقهم مزابل وحيطانهم أخصاص  
وبيوتهم أفقاص ولكل مكروه أجل وللبقاع دول والدهر يسير بالمقيم ويمزج  
البؤس بالنعيم وبعد اللجاجة انتهاء والهم الى فرجة ولكل سائلة قرار وبالله أستعين  
وهو محمود على كل حال

غدت سر من را في العناء فياها قما نيك من ذكرى حبيب ومزل  
وأصبح أهلوها شبيهاً بحاها لما نسجتها من جنوب وشمال  
اذا ما امرؤ منهم شكاً سوء حاله يقولون لا تهلك أسى وتجمل

ويطول بنا المقال اذا اردنا استقصاء أسماء المدن العربية كلها من شواطىء بحر  
الظلمات فى الغرب الى شواطىء المحيط الهندى فى الشرق قال البلخى : ومن يحصى  
بناة المدن وواضعى القرى ومن يعلم مبادئ انشائها الا الله عز وجل وهبنا  
أخبرنا بمدن فارس على نحو ما نجد فى كتبهم والمدن التى أحدثت فى الاسلام  
لقرب العهد وجدة التاريخ فمن لنا بمدن الهند والصين والروم والترک وليس كل  
مدينة أو قرية مبنية منسوبة الى بانيتها لانه قد تسمى المدينة باسم البانى أو باسم  
لها قبل حدودها أو باسم ماء أو شجر أو شىء ما وقد يجوز أن يجتمع قوم بموضع  
من المواضع فيصير ذلك مدينة فهذا يبين لك أن كل مدينة لا يوجب بانياً لها  
قاصداً اليها الى أن قال والكوفة مصرها سعد بن أبى وقاص وكان بها رمل  
فسميت به ويقال لها الكوفان والبصرة مصرها عتبة بن غزوان وسميها بحجارة

بيض كانت في موضعها وواسط بناها الحجاج ويقال لذلك واسط القصب ويقال بل توسطت البصرة والكوفة وبغداد سميت باسم موضع كان قبلها ويقال لها الزرواء ويقال بغ اسم صنم وسمتها الخلفاء مدينة السلام وأول من بناها جعفر المنصور بناها قصر الخلد بناها في الجانب الغربي من دجلة وجعل حوالها قطائع لحشمه ومواليه واتباعه كقطيعة الربيع والحربية وغيرها ثم عمرت وتزايدت فلما ملكها المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي فسمى عسكر المهدي وتزايدت بالناس والبناء .

قال البلخي : فاعلم ان المدن تبنى على ثلاثة أشياء على الماء والكلا والحطب فاذا فقدت واحدة من هذه الثلاثة لم تبقى . قال بعض الجغرافيين : مصرت البصرة على يد عتبة بن غزوان سنة اربعة عشرة وعظم أمرها حتى سميت قبة الاسلام ولها نخيل متصلة من عبداس الى عبدان نيف وخمسون فرسخاً ثم بنى بعد ذلك واسط بناها الحجاج بن يوسف سنة ثمان وسبعين وهي جانبان بينهما جسر على دجلة طوله ستمائة وثمانون ذراعاً وفي الجانبين جامعان ثم لما استخلف الله من بنى العباس السفاح بنى مدينة قريبة من الكوفة وسمها الهاشمية ثم رحل عنها الى الانبار فعمرها وسكنها ولم يزل بها الى ان مات فلما ملك أخوه المنصور بنى على دجلة بغداد ويقال ان اسمها بك دار معناه دار العدل بالتركية كأنهم قالوا الحاكم العادل وسميت مدينة السلام لأنها يسلم فيها على الخلفاء ولأنها على دجلة نهر السلام وفي تسميتها بغداد وبغداد وكان ابتداء بنائها في سنة خمس وأربعين ومائة وتم بناؤها في سنة تسع وأربعين ثم ضاقت بالجند والرعية فبنى المهدي ولد المنصور مدينة تجاها سماها الرصافة سنة احدى وخمسين ولبغداد

من المدن والبلاد صرصر وقصر ابن هبيرة مدينة بناها يزيد بن عمر بن هبيرة واليك الآن شذرة قليلة مما عثرنا عليه بالعرض من مدن العرب وأمصارهم فمنها شيراز وهي مدينة اسلامية بناها محمد بن أبي القاسم الثقفي على أثر بناء قديم ومدينة قم كورها الرشيد وجعل لها اثنين وعشرين رستاقاً بنيت زمن الحجاج سنة ثلاث وثمانين وكان مكانها تسع قرى فجمعت وصارت محالاً وكان اسم احدى القرى كهيدان فاسقطوا بعض الحروف للايجاز والاختصار وابدلوا الكاف قافاً

والمنصورية في الهند مدينة بنيت في صدر الاسلام وتسمى بالهندية تاميران  
كان موضعها غيضة يحيط بها خليج من نهر مهران . والحلة في العراق بناها سيد  
الدولة صدقة بن ديبس سنة خمس واربعين واربع مائة وتسمى الكوفة الصغرى  
لكثرة ما فيها من التشيع وأردويل وتسمى أردبيل في بلاد اذربيجان مصرت  
أيام الرشيد وانما سميت باسم اردبيل بن ارميني ومراغة بناها محمد بن مروان بن  
الحكم وكانت قبل مراغة لدوابه فسميت بذلك ومرند بناها الافشين على أثر بناء  
قديم ومزيد بناها مراد بن الضحاك ومن بلاد أرمينية مدينة شمكور وكانت  
مدينة قديمة أخرتها الصناوردية ثم جددتها بغا سنة أربعين ومائتين وسماها  
المتوكلية . ومن مدن الجزيرة مدينة أذمة بناها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي  
و بنى المنصور الى جانب مدينة الرقة قصبة ديار مضر مدينة وسماها الرافقة سنة  
خمس وسبعين نخرت الاولى وبقى الاسمان واقعين على مدينة واحدة ومن مدن  
حضر موت في اليمن مدينة الشحر ولم تكن بمدينة وكان الناس ينزلون منه في اخصاص  
فبنى الملك المظفر صاحب اليمن مدينة به حصينة بعد سنة سبعين وتسعمائة .  
وكذلك بلاد مهرة ومصرها ظفار بناها احمد بن محمد وسماها الاحمدية في سنة  
عشرين وتسعمائة .

وجدد قتيبة بن مسلم سمرقند وأحاط بها سوراً دوره سبعون الف ذراع وذلك  
سبعة عشر ميلاً ونصف ميل هو بالفرسخ نحو ستة فراسخ ومدن بخارى كرمينية  
ويكند والطواويس بناها قتيبة بن مسلم أيضاً . ومن مدن خراسان الجبلية ذوات  
الكور العريضة والاعمال الفسيحة سرخس وبوزجان وسامان وبيورد مدينة  
وزوزن وكومن بناها عبد الله بن طاهر . كما بنى مدينة شهرستان من أعمال  
خراسان وبنى في اقليم مازندران دهسيان ثغراً على طرف مغارة كما بنى يزيد بن  
المهلب سنة ثمان وتسعين مدينة بكراباد في ذلك الصقع نفسه

و بنى عمرو بن العاص الفسطاط ( مصر ) وبنى احمد بن طولون القطايع ولما  
ملك العبيديون مصر بنى جوهر مولى الممزر مدينة فوق القطايع وسماها القاهرة .  
وفي افريقية مدينة المهدي بناها المهدي العبيدي سنة ست وثلاثمائة ومدينة  
بونة بنيت بعد الحسين واربعائة ومدينة بجادته وهي مدينة حسنة البناء طيبة

الفناء بناها الناصر بن علناس احد بنى حماد سنة سبع وخمسين وأربع مائة .  
ومدينة وهران بنيت سنة تسعين ومائتين . ورباط الفتح في سلامن أعمال طنجة .  
بناها عبد المؤمن وقصر الفرج بناه المنصور من بنى عبد المؤمن . والسوس  
الاقصى يقال ان أول من عمره وأجرى فيه الانهار عبد الرحمن بن مروان بن  
الحكم وفيه مدن كثيرة وقصبتها تاملت مدينة سهلية جبلية مسورة من بناء  
عبد الله بن ادريس . ومن بلاد السوس مدينة اينلي بانيتها عبد الله بن ادريس أيضاً  
ومراكش بناها يوسف بن تاشفين الصنهاجى سنة ٤٩٠ ويلى مراكش فاس وهى  
مدينتان إحداهما عدوة الاندلس بنيت سنة ٢٩٢ والاخرى عدوة القرويين بنيت  
سنة ثلاث وتسعين ومائة . وسوق حمزة بناها حمزة بن سليمان العلوى وأشير  
بناها زيرى والمسيلة بناها محمد بن عبيد الله المهدي المنعوت بالقائم وسماها المحمدية  
وقلعة بنى حماد بناها حماد بن زيرى والقيروان اختطها عقبة بن نافع ومدينة  
بظليوس بالاندلس بناها عبد الرحمن بن مروان ومدينة تطيلة بنيت أيام الحكم بن  
هشام والهارونية من أعمال الفاكية بناها هارون الرشيد

وسامية بالشام على سيف البرية بناها عبد الله بن صالح وعلى بن عبد الله بن  
عباس وطرابلس المستجدة بعهد طرابلس الشام بجيش المسلمين فى مملكة الملك  
المنصور وسيف الدين قلاوون الضالحي بنيت فى سفح ذيل من أذيال جبل لبنان  
بكورة من أكوار طرابلس بعدها عن طرابلس القديمة الخربة نحو من خمسة  
أميال على شاطئ نهر يجرى الى البحر وهى المدينة المعروفة اليوم البعيدة عن  
الميناء المعروفة بميناء طرابلس الشام والمصر لمدينة انطرسوس معاوية بن أبى  
سفيان فى أيام عثمان بن عفان حين غزا قبرص ومدينة عكا بناها عبد الملك بن  
مروان ومرعش من بناء خالد بن الوليد وجددها مروان بن الحكم ثم المنصور  
بعده وسميت الثغور لان المطوعين من أهل الحوزة كانوا يربطون فيها ويغزون  
مدن الروم . واذنة ( اطنة ) بناها الرشيد على نهر سيحان .

وطرسوس بنيت فى أيام هارون الرشيد والمصيصة بناها المنصور وعسكر  
مكرم نزلها مكرم بن مطرف اللخمي فصارت مدينة ونسبت اليه .  
ومدينة الاقلام بافريقية مدينة أحدثها آل ادريس وسيله مدينة أحدثها على ابن

الاندلسي أحد خدم القائم بجانه وهي المرية من الاندلس محدثة ومدينة الزهراء بناها عبد الرحمن بن محمد خط فيها الاسواق كما قال ابن حوقل وابنتي الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات واجتلب الى ذلك بناء العامة وأمر مناديه بالنداء الامن أراد أن يبني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمئة درهم فتسارع الناس الى العماره فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الابنية بين قرطبة والزهراء .

هذاما التقطناه في هذه العجالة ولعل بعض الباحثين يتوسعون في هذا الموضوع في رسالة على حدة يذكرون فيها جميع ما أقامه العرب من الامصار والقرى وأعمال العمران كالطرق والجسور والانهار والترع وغير ذلك مما يفيد في تصور المدنية العربية ويدعو الاخلاف الى التطريس على آثار الاسلاف

## سماع الالخان<sup>(١)</sup>

فن الغناء نشأ مع البشر منذ طفوليتهم وتدرج في درجات العلو ودركات الهبوط بحسب ارتقاء الامم . ولقد كان له شأن وأي شأن عند الامم الراقية في القديم على ما دلت عليه روايات التوراة والصور التي وجدت في النواويس المصرية والنقوش البارزة في قصور عمود وخراساباد حيث مثلوا الموسيقيين<sup>(٢)</sup> والمغنين وأدوات الطرب كالشبابه والبوق والصنج والجنك والعود وغيرها . ومزامير داود مشهورة مذكورة .

(١) نشرت بالمجلد الثامن من مجلة المقتبس

(٢) في لفظ الموسيقى كما في سفينة الملك لمحمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين افتان احداها موسيقى بمنتهين تحتيتين بينهما قاف مكسورة والاخرى موسقى بحذف الياء الاولى وعلى كل من اللغتين هو بضم الميم وسكون الواو وكسر السين المهمله كلمة يونانية معناها علم النغمات والالخان وكان هذا هو الاصل فيه ثم صار علماء على هذا العلم في سائر اللغات الا انه قد اعتراه تحريف في لغة الافرنج حيث قالوا موزيكا بابدال السين زايماً والقاف كافاً وفتحوا السكاف نظراً الى ما سمعوه من عوام الناس اذهم يعبرون عنه بموسيقا بفتح القاف فان قلت ان خواص علماء هذا الفن يعبرون عن هذا اللفظ بعبارات مختلفة أيضاً قلت نعم غير انها اختلفت لاختلاف معانيها فانهم يعبرون تارة بموسيقى